

السيدة زينب
دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

السيدة زينب

عقيلة بني هاشم

السيدة زينب

عقيلة بني هاشم

رضي الله عنها

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ

إستاذ الدراسات القرآنية العليا
بجامعة القرويين - المغرب

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

نوفمبر ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢/٨٠٠٨١١/٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ .L.E كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

الإهداء

إلى أبي...

فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد علي عبد الرحمن».

ذكرتك يا أبي وأنا أكتب كل كلمة في هذا الكتاب، فلما فرغت منه شعرت كأنما كنت معي: تكتبه لي وتمليه عليّ...

ها هو ذا، أهديه إليك، تحية ووفاء لعهد خلا، أيام كنت صبية أباهي بك لداتي وأترابي جميعاً، حين نمر «بمعهد دمياط» في طريقنا إلى المدرسة، فنراك من نافذة المعهد، في حلقة طلاب من العلم، يصغون إلى درسك بكل عقولهم وكل جوارحهم. فإذا عدنا من المدرسة، ألفيناك في حلقة أخرى من صحبك ومريديك يأخذون «العهد» عليك، ويصغون وأصغي معهم إلى حديثك المؤثر عن طريق الوصول إلى الحق، فأشعر – على صغر السن – أنني أتطاول إلى ذاك الأفق العالي الذي تحلق فيه، واستشرف له طامحة مريدة!

ولم أنس يا أبي، على بعد العهد وتطاول الأيام، مجلسك فينا تحدثنا عن آل

البيت الكرام أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم ، وعلمتنا أن نزهو بشرف انتسابنا إليهم .

* * *

أذكرها يا أبي ليلة من ليالي شهر رجب ، وقد رأيناك تتهيأ للسفر في غد إلى القاهرة ، وأمنا الغالية – نضر الله وجهها – تترقب ساعة الوضع . فالتمسناك – أنا وشقيقتي الكبرى فاطمة – وأنت في خلوتك تتهجد ، ورجوناك أن تلغي سفرك ذاك أو ترجئه ، فقد كنا خائفتين ...

قلت لنا :

– لا تخافا ولا تحزنا ، فالله معها ...

ثم أفسحت لنا مكاناً إلى جانبك ، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التي لم تكن تستطيع أن ترجئها ، لأنك تؤدي بها واجباً مفروضاً ، هو المشاركة في الاحتفال بذكرى «السيدة زينب» .

ومضى وهن من الليل ونحن في مجلسنا منك ، نسمع قصتها المؤثرة ، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمي :

– إن وضعتها أنثى ، فسميها زينب ...

ثم تركتها وإيانا ، لرعاية الله ...

ومن تلك الليلة يا أبي ، وعيت اسم «السيدة زينب» وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة ، ثم لم أنسها أبداً ...

* * *

والیوم شاقني أن أكتب عن «السيدة» ؛ فلما تهيأت للكتابة ، ألفيتني أعود إلى أمسي ذاك البعيد ، فأتمثله شاخصاً أمامي ملء الحياة ، وظل هكذا : شاخصاً ، ماثلاً ، حاضراً حتى فرغت من الكتابة ، فوضعت قلمي وأنا أشعر بشيء من الإجهاد ، وغفوت حالمة ، أذكر الماضي الذي ولّى وراح...

واستمرأت طعم هذا الشجن ، فكدت أسلم له نفسي ، لولا أني سمعت نداء طفلتي من بعيد ، فصحوت من إغفاءتي وأنا أردد :

أبقاك الله يا أبي...

ورحم الله أمي...

عائشة

مقدّمة

هذا الكتاب ليس تاريخاً بحتاً ، وإن أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية أصيلة ؛ كما أنه ليس قصة خالصة ، وإن اصطنع الأسلوب القصصي – غالباً – في العرض والأداء .

وإنما هو صورة لأنثى ، قدر لها أن تعيش في فترة تعج بجليل الأحداث ، وأن تلعب على مسرح الدولة الإسلامية دوراً ، أقل ما يوصف به أنه دور ذو شأن :

اقترن اسمها في تاريخنا ، والتاريخ الإنساني ، بمأساة فاجعة هي مأساة «كربلاء» . وهي مأساة أجمع المؤرخون على انها كانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الشيعة بخاصة ، والتاريخ الإسلامي بعامة ، ثم ذهب بعضهم بعد ذلك ، إلى أنها كانت أخطر تلك المعارك جميعاً ، وعدّوها الطور الحاسم الذي أصّل التشيع ومكن له كمذهب ، ومن ثم فهم يرون أن الدم المسفوح في تلك الواقعة المشؤومة ، هو الذي صبغ تاريخنا السياسي والمذهبي بتلك الصبغة الدامية التي نعرفها في «مقاتل الطالبيين» ونضال «الشيعة» .

ولم يجحد هؤلاء ولا أولئك دور «السيدة زينب» في المأساة، بل إن منهم من سماها «بطلة كربلاء» لأنها السيدة الأولى التي ظهرت في اللحظة الحرجة، تأسو الكلوم، وتواسي المحتضرين، وتثور للضحايا الشهداء الذين نُبذوا هنالك في العراء: أشلاء مبعثرة تنهشها الطيور والوحوش.

لكني أرى دورها الحقيقي قد بدأ بعد المأساة، إذ كان عليها أن تحمي السبايا من الهاشميات اللاتي فقدن الرجال، وأن تناضل مستميتة عن غلام مريض — هو علي زين العابدين بن الحسين — كاد لولاها أن يذبح، فتفنى بذهابه يومئذ سلالة الإمام. ثم كان عليها بعد ذلك ألا تدع الدم المسفوك يذهب هدراً...

وما أحسبني أغلو أو أسرف، إذا زعمت أن موقف السيدة زينب بعد المذبحة، هو الذي جعل من «كربلاء» مأساة خالدة!..

* * *

ولم تعش «زينب» طويلاً بعد الفاجعة، فما كان الذي كابدته من محن وآلام بحيث يحتمل أو يطاق، لكنها استطاعت في تلك الفترة القصيرة التي عاشتها، أن تشعل في نفوس الشيعة حزناً مستعراً لم يخمد لهيبه حتى اليوم، وأن ترهق الذين أسلموا آل البيت بوخز الحسرة والندم، وتجعل التكفير عن خطيئتهم ميراثاً رهيباً مقدساً، يتوارثونه جيلاً بعد جيل...

وأعود فاقول إن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون صورة لحياة تلك «السيدة» رسمها المؤرخون الثقات من قبلي، ثم جاء «المتقبيون» فأضافوا إليها ظلالاً شبه أسطورية، لها روعتها وسحرها، وعميق إيحائها، وقوة دلالتها.

وقد حرصت ما استطعت ، على اصالة الألوان التاريخية في الصورة ، دون أن أهدر هذه الظلال أو أهوّن من شأنها : لأنها – مهما يكن رأي العلم والتاريخ فيها – عنصر في صورة « السيدة » كما تمثلها السابقون وكما رأوها ، ولا أرى من حقي أن أسخر بأي ظل منها ، إلا إذا كان من حق الدارس النفسي أن يسخر بالأوهام والأحلام.

وكل عملي في الكتاب ، أني ألفت بين الألوان التاريخية والظلال شبه الأسطورية ، لأجلو منها صورة لتلك التي شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي ، وذهبت في تاريخ الإنسانية قصة وعبرة ومثلاً...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لهذا الكتاب عندي منزلة خاصة ، فقد فتح أمامي أثناء تأليفه ، آفاقاً جديدة رحبة لم أكن شارفتها من قبل ، وهيأ لي من المتعة الروحية والذهنية ما لم يتح لي مثله في كتاب آخر ، ثم كان لي من احتفاء القراء به ، وإقبالهم عليه إقبالاً يعز نظيره في عصرنا المادي الذي كسدت فيه بضاعة القلم ، ما أغراني بالمضي في هذا النوع من الدراسات الأدبية الإسلامية .

لقد ظهرت الطبعة الأولى منه في شهر مارس عام ١٩٥٢ ، فلم تكد تمضي أيام حتى نفدت نسخه جميعاً ، على الرغم من طبعه إذ ذاك حلقة في سلسلة «كتاب الهلال» التي تجاوز النطاق المألوف في مقدار ما تطبع ، مرّات مضاعفة . ويعجز قلمي عن وصف ما أحسست به حينئذ من غبطة فياضة وهناءة غامرة ، مصدرهما هذا التجاوب الفكري والوجداني المسعد ، بيني وبين الألوف من القراء الأصدقاء ، في وطننا العربي الكبير .

ولمن شاء من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء ، أن يتمثل سعادتي وأنا ألتمس نسخة من الكتاب عقب ظهوره فلا أجدها ، وأمضي إلى «دار الهلال» راجية أن تمدني ببعض ما اعتادت أن تحتفظ به في رصيدها الدائم من مطبوعاتها ، فإذا بها تعتذر بنفاد كل ما لديها ، وتستمهلني أياماً لعل إحدى دوائر التوزيع النائية ، ترد بعض النسخ غير المباعة .

وانتظرنا ، فكانت نتيجة الانتظار على غير ما توقعنا :

لقد حمل إلينا البريد — بدلاً من المرتجع فيضاً من رسائل التقدير والتشجيع ، وإحدى هذه الرسائل مرفقة بهدية رمزية غالية ، من الأخت النبيلة «السيدة فخرية كبة ببغداد» فكانت عندي أثمن من كنوز الأرض جميعاً .

وطلبت صورة الصديقة الكريمة ، فوضعتها على مكتبي ، وعكفت على إعداد كتابي عن «آمنة بنت وهب» سيدة الأمهات ثم عن «نساء النبي» ثم عن «بنات النبي» ﷺ ، وصورة السيدة فخرية أمامي ، تمثل عندي ألوف القراء الأصدقاء الذين تربطني بهم — على غير معرفة شخصية — أعز أواصر الود ، والتجاوب الفكري ، والصداقة الروحية .

* * *

وفي هذا الجو المعنوي المسعد ، آثرت أن تصدر الطبعة الثانية لهذا الكتاب ، من «دار الكتاب العربي في بيروت» رمزاً لما أشعر به نحو قرائي من مختلف الأقطار العربية الشقيقة ، ووفاء ببعض ما لهم عليّ من دين !..

فإليهم جميعاً ، على القرب والبعد ، جميل الشكر وخالص التحيات .

مصر الجديدة
٦ من فبراير ١٩٧٨

من
بنت الشاطئ

المبحث الأول

في بيت النبوّة

- آباء وأجداد
- ظلال على المهد
- الصبا الحزين

آباءٌ وأجدادٌ

كان البيت الكريم ينتظر ساعة الوضع في لهفة وترقب ، ومن ورائه عشرات الألوف ممن أسلموا ، يترقبون النبأ السعيد وقلوبهم تحف بالسيدة الوالدة إجلالاً ومحبة ، وألسنتهم تلهج لها بالدعاء الحار!..

إنها «الزهراء» بنت النبي ، توشك أن تضع في بيت النبوة مولوداً جديداً ، بعد أن أقرت عيني الرسول بسبطيه الحبيبين : الحسن ، والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش ، هو المحسن بن علي .

وحانت الساعة المرتقبة...

وأذيعت البشرى أن «الزهراء» قد وضعت أنثى باركها النبي واختار لها اسم «زينب» إحياء لذكرى ابنته الراحلة «زينب» التي كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل ، فوجد الرسول عليها ، وحزن لفقدها حزناً ثقيلاً!..

تلك الراحلة ، هي كبرى بناته ﷺ ، تزوجت ابن خالتها «أبا العاص بن الربيع ابن عبد العزى بن عبد شمس» قبل النبوة ، فلما كان المبعث أسلمت هي ولم يسلم ، على أنه ظل رفيقاً بها محباً لها ، وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يفارقها كما فعل ابنا

«أبي لهب» زوجا أختيها «رقية. وأم كلثوم». حتى كانت غزوة «بدر» وأسر «أبو العاص» فيمن أسر من مقاتلة قريش، فأرسلت «زينب» — وهي لا تزال بمكة — تفتديه، وبعثت قلادة كانت أمها «خديجة» — رضي الله عنها — قد أهدتها إليها يوم زواجها بأبي العاص، فلما رأى الرسول ﷺ القلادة، رق قلبه لها وقال لصحبه المسلمين:

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا.

قالوا: نعم يا رسول الله...

وأطلق النبي أسيره، على أن يرسل «زينب» إلى المدينة، فما عاد لها مكان في بيت «أبي العاص» وقد فرق إسلامها بينها وبينه.

وعادت «زينب» إلى المدينة تطوي جوانحها على شجو وشجن، وبقي «أبو العاص» بمكة، يغالب شوقه إلى زوجه النائية.

ثم خرج من بعد ذلك في تجارة إلى الشام، فأسرته حين عودته سرية للمسلمين، غلبت على القافلة المكية بمن فيها من رجال وعير ومال، لكن «أبا العاص» تمكن من الإفلات ودخل «المدينة» مستخفياً يلتمس زوجه «زينب». فلما بلغ دارها، لاذ بها مستجيراً فرحبت به وأمنت روعه، ثم تمهلت حتى صلى الرسول صلاة الصبح فصاحت، بأعلى صوتها:

— أيها المسلمون، إني قد أجرت «أبا العاص بن الربيع».

وتناهى صوتها إلى أبيها فمس قلبه، وأقبل على من حوله يسألهم:

– هل سمعتم ما سمعت؟

أجابوا : نعم .

قال : فو الذي نفسي بيده ما علمت بذلك حتى سمعت ما سمعتم !

ثم صمت برهة ، عاد بعدها يردد ما قرره من قبل :

«يجير على المسلمين أدناهم ...»

وقام يسير صامتاً ، متمهلاً ، حتى دخل على ابنته «زينب» ، وهي جالسة تترقب ، وكأنها تصغي إلى صدى صيحتها ...

قال لها أبوها :

– أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له !

قالت وقد هزها الفرح :

– أي وربي ، ولكن ، هل رددتم عليه ماله؟

فلم يجب أبوها ، وإنما انطلق عائداً إلى صحبه ، فدعا إليه رجال السرية التي أسرت قافلة قريش وقال :

– إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذي له ، فإن أبيتم فأنتم أحق .

قالوا : بل نرده عليه .

وودع «أبو العاص» تلك التي كانت زوجه ...

وأثنى على ذلك الذي كان صديقه وزوج خالته.

وانطلق إلى «مكة» وقد اعتزم أمراً...

وهناك، أدى إلى الناس ما كان في عهدته من أمانات لهم، ثم تساءل عما إذا كان لأحد في ذمته بقية مال؟

أجابوا: لا.

قال: إذن فاعلموا أني قد أسلمت...

وقفل راجعاً من حيث جاء: إلى «المدينة» ليبايع صاحبه، ويتزوج «بزينب» مرة ثانية.

لكن «زينب» ما لبثت أن ماتت متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من «مكة» إلى «المدينة» بعد غزوة «بدر»، ذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق إلى دار الهجرة، فنخسها في بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها.

ماتت، وظل أبوها يجد في قلبه لوعة الحزن، حتى إذا ما ولدت أختها «الزهراء» أنثاها الأولى، سماها «زينب».

* * *

وتعالى هتاف «المدينة» للوليدة: مدينة الرسول التي استقبلته منذ ستة أعوام مهاجراً بدينه إليها من «مكة» بعد اضطهاد مرير دام ثلاثة عشر عاماً، فتلقاه أهلها في حماسة منقطعة النظير، وأنزلوه وصحبه المهاجرين منزلة عزيزة ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يذكرها ما عاش لأولئك الأنصار الذين آووه ومنعوه وأتاحوا له أن

بديع رسالة السماء.

أجل، تعالى هتاف «المدينة» في العام السادس من الهجرة، للوليدة الغالية «زينب بنت علي» تلك التي تلاقى فيها أعز ما عرفت قريش والعرب من كريم الأصول ونقي السلالات.

* * *

أمها «الزهراء»: أحب بنات الرسول إليه وأشبههن به في خُلق وخَلق، آثرها الله بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث: زينب، ورقية، وأم كلثوم، فكتب لها أن تكون - وحدها - الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت... !

* * *

وأبوها «علي بن أبي طالب» ابن عم النبي ووصيه، وأول من آمن به صبياً، وفتى قريش شجاعة وتقى وعلماً.

* * *

وجدّاها لأمها «محمد رسول الله» و«خديجة بنت خويلد»: أولى أمهات المؤمنين، وأقرب زوجات النبي إليه وأعزهن عليه حية وميتة، انفردت بحبه واعزازه خمساً وعشرين سنة، لا تشاركها فيه امرأة أخرى، ووقفت إلى جانبه في سني الاضطهاد الأولى تؤازره وترعاه، وتهوّن عليه ما يلقى من قريش في سبيل رسالته.

كانت وحدها إلى جانب «محمد» لما آب من غار «حراء» مرتعداً مقروراً وقد نزل

عليه أمين الوحي رسولاً من عند الله ، يلقي إلى الأمي اليتيم الآية الأولى :

«إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم».

ولدى «خديجة» – قبل سواها – سكنت نفسه واطمأنت ، وزايله ما عراه من رهبة الوحي ، فعلم أنه المصطفى المختار للأمر الجليل ، وهي إلى جانبه مومنة مصدقة ، واثقة راجية ، محبة متفانية ، لا يزعزع ثقتها فيه وإيمانها به أن قريشاً تنكر ما جاء به ، وأن شيوخ قومها قد يظنون به الظنون ويتهمونه بالسحر أو بالجنون ، فكانت ثقتها في الرجل الذي أحبته وصدقته وآمنت به حتى الرمق الأخير ، تضفي كما يقول «بودلي» في كتابه (الرسول) – جواً من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد من كل ستة من سكان العالم .

وما كانت «خديجة» في سن تهون عليها احتمال المتاعب والآلام ، ولا كانت قد تعودت طوال حياتها شظف العيش أو شقوة الحرمان ، لكنها رضيت – وهي في تلك السن العالية – أن تستبدل بحياتها الناعمة المترفة الهادئة ، حياة القلق والخشونة والكفاح ، واحتملت في بطولة ، محنة الحصار الذي فرضه القرشيون على بني هاشم حتى كادوا يهلكونهم جوعاً !

ولقد ماتت «خديجة» ومحنة الاضطهاد في إبانها ، لكنها كانت قد مكنت للدعوة وتركت إلى جانب رجلها صحابة مخلصين ، يؤمنون به ويؤثرون الموت على التخلي عنه . وكان فقدها في هذه الفترة العصيبة بدء مرحلة من مراحل الجهاد ، إذ نبا بالرسول بعدها مكانه بمكة ، فكانت «الهجرة» التي يؤرخ بها المسلمون حتى اليوم ، وإلى الأبد .

هاجر وفي قلبه ذكرى باقية لتلك الحبيبة الأولى ، ولم تستطع واحدة من زوجاته اللواتي جئن بعدها — حتى عائشة نفسها — أن تمحو هذه الذكرى الحية في قلب محمد ﷺ ، أو تؤذي جلالها : أقبلت «هالة» — أخت خديجة — ذات يوم لزيارة الرسول في «المدينة» ، فلما سمع «محمد» صوتها في فناء دوره — وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة — اهتز انفعالاً وشجواً ، فقالت له «عائشة» بعد انصراف «هالة» :

— ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ !

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، ورد على «عائشة» زاجراً :

— والله ما أبدلني الله خيراً منها : آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس...

* * *

وجدّ «زينب» لأبيها ، أبو طالب بن عبد المطلب : عم الرسول بل أبوه ، فلقد مات «عبد الله» و«محمد» جنين في بطن أمه ، ومات «عبد المطلب» وحفيده غلام في السابعة أو نحوها ، فكفله عمه «أبو طالب» ، وكان له الأب والحامي والصديق ، لم يتخل عنه لحظة في سني المحنة كما فعل عمه «أبو لهب» ذاك الذي كان أشد على ابن أخيه «محمد» من المشركين البعداء وكانت زوجه «أم جميل» تحمل إليه الحطب فيقذف به «محمداً» وهو يسبه ويلعنه ، ولقد أبى — وأبت زوجه — أن يُظل سقفُ بيتهما ابنتي الرسول «رقية وأم كلثوم» اللتين تزوجهما «عتبة وعتيبة ، ابنا أبي لهب» قبل المبعث ، فطلقهما ليتزوجهما «عثمان بن عفان» الواحدة بعد وفاة أختها .

أجل، لم يتخل «أبو طالب» عن ابن أخيه كما فعل «أبو لهب» ولم يسلمه إلى أشراف قريش عندما ألحوا في طلبه وإنه ليصغي إلى «محمد» يقول:

«والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه».

فيتناول الشيخ يد ولده في حنو وتأثر وهو يقول:

- اذهب وقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً! وصدق وعده...

ظل يحميه إبان المحنة، غير مكترث بإنذار قريش أن تنفي الهاشميين جميعاً إذا لم يسلموا ابنهم «محمداً» ليقتل.

وإلى شعب «أبي طالب» أوى «محمد» وزوجه وأصحابه وعشيرته، طوال الفترة التي حاصرهم فيها القرشيون وحاولوا القضاء عليهم جوعاً. ثم مات «أبو طالب» بعد أن ماتت «خديجة» بقليل، ففقد الرسول بموتهما أحب اثنين إليه وأقدرهم على تأييده، فكانت الهجرة...

* * *

وجدة زينب لأبيها: «فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف» زوجة أبي طالب عم الرسول، وأول هاشمية تزوجت هاشمياً وولدت له، أدركت النبي ﷺ فأسلمت وحسن إسلامها، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها، وصلى عليها، ونزل في لحدها، واضطجع معها فيه، وأحسن الثناء عليها. ذكر «ابن سعد» في (طبقاته) و«ابن هشام» في (السيرة) و«أبو الفرج الأصبهاني» في (مقاتل الطالبيين) عن «ابن عباس» رضي الله عنه أنه قال: «لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقال له

أصحابه : يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة . فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها ، إني إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها » .

وكانت « فاطمة » هذه تقابل بزوجة عم آخر للنبي قدر لها أن تذكر في (القرآن الخالد) ولكن أي ذكر ! ؟ انها « أم جميل بنت حرب » !! وهو اسم قد يبدو غريباً على مسمع كثيرين ، حتى من هؤلاء الذين يعرفون التاريخ الإسلامي ويقرأون القرآن ، لكنها غرابة لا تلبث أن تزول إذا علمنا أنها حمالة الحطب « زوجة أبي لهب » ، عم الرسول ، وفيها وفي زوجها قال الله تعالى في كتابه المنزل على محمد ﷺ :

« تبّت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » .

* * *

وجد « زينب » الأعلى لأبويها علي وفاطمة ، « عبد المطلب بن هاشم » : أمين الكعبة وصاحب السقاية والرفادة ، انتقل إليه هذا الشرف عن آبائه وأجداده كابراً عن كابر ، فما كان لأحد من غير أسرته - إلى مئات السنين - أن يتولى حراسة الكعبة وسقاية الحجيج .

منعه الله من « أبرهة » حين هاجمه في جيش من الأحباش والفيلة ، فجعل الله كيدهم في تضليل « وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

* * *

ظلال على المهد

تلك هي الوليدة التي استقبلتها «مدينة الرسول» في العام السادس للهجرة ، وهو العام الذي شهد استقرار الأمر لصاحب الدعوة ، وخروجه على ناقته القصواء — التي جاءت به من «مكة» أيام الاضطهاد مع صاحب واحد ، شيخ مخلص — في ألف وخمسمائة من صحابته المهاجرين والأنصار ، في ملابس الإحرام البيضاء ، يريدون «مكة» — معقل أعداء محمد والإسلام — ثم يعودون ظافرين بصلح «الحديبية» مع «أبي سفيان» والمشركين من قريش.

* * *

وبدا كأن كل شيء يعد الوليدة بحياة سعيدة ، وأقبل المهنئون من بني هاشم والصحابة ، يباركون هذه الزهرة المتفتحة في بيت الرسول ، تنشر في المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح في طلعتها المشرقة ووجهها الصبيح ، ملامح آباء وأجداد لها كرام.

لكنهم فوجئوا — لو صدقت الأخبار — بظلال حزينة تلف المهد الجميل ! ظلال ربما لا يكون لأكثرها مكان في كتاب تاريخ يكتب للتحقيق العلمي ، لكن لها مكانها في النفس البشرية ووقعها على الوجدان.

حدثوا أن نبوءة ذاعت عند مولد الطفلة ، تشير إلى دورها الفاجع في مأساة «كربلاء» ، وتحدث بظهر الغيب عما ينتظرها في غدها من محن وآلام.

كانت المأساة معروفة فيما يقولون ، قبل موعدها بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ففي (سنن ابن حنبل : ١/٨٥) أن جبريل أخبر «محمداً» ﷺ بمصرع الحسين وآل بيته في كربلاء.

وينقل «ابن الأثير» في (الكامل) أن الرسول أعطى زوجه «أم سلمة» تراباً حمله له أمين الوحي من التربة التي سيراق فوقها دم «الحسين» وقال لها ﷺ : «إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين» وأن «أم سلمة» حفظت ذلك التراب في قارورة عندها فلما قتل «الحسين» صار التراب دماً ، فعلمت أن «الحسين» قتل ، وأذاعت في الناس النبأ.

وسوف نسمع المؤرخين بعد ذلك في حوادث عامي ٦٠ ، ٦١ ، يذكرون أن «زهير بن القين البجلي» — وهو عثماني الهوى — خرج من «مكة» بعد أن حج عام ٦٠ ، فصادف خروجه مسير «الحسين» إلى العراق ، فكان «زهير» يساير «الحسين» إلا أنه لا ينزل معه ، فاستدعاه ««الحسين» يوماً فشق عليه ذلك ، ثم أجابه ، فلما خرج من عنده أقبل على أصحابه فقال : «من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد» .

ثم راح يروي لهم قصة قديمة من عهد الرسول : قال «زهير» إنه خرج مع جماعة من المسلمين في غزوة لهم فظفروا وأصابوا غنائم فرحوا بها ، وكان معهم «سلمان الفارسي» فأشار إلى أن «الحسين» سيقاتل يوماً ويقتل ، ثم قال سلمان لأصحابه «إذا

أدركتم سيد شباب أهل محمد ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم من الغنائم ».

قال ابن الأثير : وتوجّه زهير – بعد أن حدَّث أصحابه بحديث سلمان الفارسي – فودع أهله ، وطلق زوجته مخافة أن يلحقها أذى ، ولزم الحسين حتى قتل معه ».

وكان «الحسين» – فيما يروي المؤرخون – يعلم منذ طفولته بما قدر له ، كما كان دور أخته «زينب» حديث القوم منذ ولدت . فهم يذكرون أن «سلمان الفارسي» أقبل على «علي بن أبي طالب» يهنئه بوليدته ، فألفاه واجماً حزيناً ، يتحدث عما سوف تلقى ابنته في كربلاء...

وبكى «علي» : الفارس الشجاع ، ذو اللواء المنصور ، والملقب بأسد الإسلام !

* * *

أكانت هذه المرويات جميعاً من مخترعات الرواة ومبتدعات السمار؟.

أكانت من إضافات المنقبين وتصورات المتحدثين عن الكرامات؟.

أكانت من شطحات الواهمين ورؤى المغرقين في الخيال؟

ذلك ما اطمأن إليه المستشرقون وقرره «رونالدسون» في كتابه (عقيدة الشيعة) . و«لامنس» في (فاطمة وبنات محمد).

أما المؤرخون المسلمون فما يشك أكثرهم في أن هذه المرويات كلها صادقة لا ريب فيها ، وقلَّ منهم من وقف عند خبرٍ منها مرتاباً أو متسائلاً . وليس الأقدمون وحدهم هم الذين نزهوا مثل هذه المرويات عن الشك ، بل إن من كتَّاب العصر من

لا يقل عنهم إيماناً بتلك الظلال التي أحاطت بمولد «زينب». فهذا الكاتب الهندي المسلم «محمد الحاج سالمين» يصف في الفصل الأول من كتابه (سيدة زينب Sayyidah Zeinab) كيف استقبلت الوليدة بالدموع والهموم، ثم يمضي – بعد أن ينقل بعض المرويات عن النبوءة المشئومة – فيتمثل «النبي العظيم وقد انحنى على حفيدته يقبلها بقلب حزين وعينين دامعتين، عالماً بتلك الأيام السود التي تنتظرها وراء الحجب».

ويمضي «سالمين» فيتساءل: «ترى إلى أي مدى كان حزنه ﷺ حين رأى بظهر الغيب تلك المذبحة الشنعاء التي تنتظر سبطه الغالي! وكم اهتز قلبه الرقيق الحاني وهو يطالع في وجه الوليدة الحلوة، صورة المصير الفاجع المنتظر؟!».

أما نحن فلا نحيل أن يكون شيء من هذه الشائعة قد شاع، ثم هي اليوم – بعدما كانت – ظلال على الصورة المعروضة يحمل بها التلوين، وإنها لظلال يلقي مثلها على مهد الوليدة، كآبة ووجوماً، ويثير لها أعمق عواطف الرحمة والرثاء.

* * *

ونستطيع أن نضيف إلى هذا، أن «الزهراء» لم تكن أيام الحمل مشرقة مطمئنة، فلقد كانت تعتادها من حين إلى حين، نوبات من القلق والاكتئاب، وهي نوبات قديمة غير طارئة، لعلها بدأت بموت أمها «خديجة» رضي الله عنها، ثم أخذت تزداد في بطء، منذ جاءت «عائشة» إلى بيت الرسول وشغلت مكان الأم الراحلة، وهو المكان الذي ترك بضع سنين لفاطمة، الابنة الأثيرة المحبة.

ثم كان بين الابنة وزوجة الأب، ما يشبه الذي يكون بين مثيلاتهما في الناس: وهو ما اعترفت به «عائشة» بعد سنين، وتحدث عنه بعض الغربيين، أذكر منهم

«بودلي» في كتابة (الرسول) و«لامنس» في كتابه (فاطمة وبنات محمد) فجعلوا في دور النبي معسكرين: أحدهما معسكر «عائشة» الزوجة المدللة، والآخر معسكر «فاطمة» الابنة المفضلة.

وليس ببعيد أن يكون لحالة الحمل أثر في اشتداد ما كانت «فاطمة» تعاني من ذاك، مع ما تجد لفقد الأم...

* * *

ونرمق «زينب» وهي تدرج في ساحة البيت الشريف، محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم، وعطف سابغ من آلها الكرام، فنراها على البعد صبية حلوة في حضانة «الزهراء» تتلقى عنها الدروس الأولى في الحياة، فإذا جاوزت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين، جدها صاحب الرسالة، وأباها الفارس أمير البيان، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام.

«لم تظفر صبية من لداتها – فيما نحسب – بمثل ما ظفرت هي به في تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية، وكان هذا كله بحيث يرضي «زينب» في صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوءة الأليمة: قيل أنها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل، ثم استطرد – متأثراً بذكائها اللامع – يلمح إلى ما ينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر. ولشد ما كانت دهشته حين قالت له «زينب» في جد رصين:

– أعرف ذلك يا أبي... أخبرتني به أمي، كيما تهيئني لغدي.

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً .

وأراني قد تناولت الحديث عن صبا « زينب » لألمح امتداد هاتيك الظلال الهائمة حول مهدها . فلأترك هذا إلى حين ، ولأعد إلى طفولتها الباكرة ، فأراها تستقبل من الأحداث الكبرى ظلال الواقع ، ولما تزل طفلة في الخامسة من عمرها !

* * *

الصّبا الحزين

لم تكن «زينب» جاوزت الخامسة، حين لبّى جدها ﷺ نداء ربه، وثوى جسده الطاهر في غرفة «عائشة» بعد أن فتح «مكة» وطهّر البيت الحرام من الأوثان، وتلقى بيعة قومه الذين دخلوا في دين الله أفواجاً.

ولعل الطفلة تابعت المشهد الرهيب ورأت جدها العزيز يُحمل على الآلة الحدباء حتى يواري الثرى. ولن نمضي مع المنقّبين فنقول إنها أدركت في هذه الحداثة الغضة، مغزى تلك الرحلة الأليمة المحتومة، أو فهمت مدار ذلك الصراع بين الصديقين الصاحبين: «عمر وأبي بكر»، يصيح أولها:

— إن محمداً لم يمت، ووالله ليرجعن كما رجع موسى!

فيجيبه صاحبه:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين».

ثم إذا رأى إصرار صاحبه، صاح في الجمع الحاشد:

– من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

أجل ، لا أقول إن بنت الخامسة أدركت مغزى هذا أو ذاك ، ولكنها رأت – دون شك – مشاهد الذهول والحزن والجزع ، وأصغت إلى عويل الباكيات وصراخ المفجوعين . ومن يدري ما الذي كان يدور بخلد الصغيرة الذكية وهي تلقى جدها الكبير صامتاً في تلك المناحة المفجعة ، ساكناً والدنيا من حوله ضاجة صاخبة ، هائجة مائجة ، ثائرة فائرة ، كأنما قد لفها إعصار؟ !.

أي خوف غامض قد غزا قلبها الخلي إذ ذاك ، وروّع روحها الساذجة الآمنة؟ .

أي طائف من الحزن المبهم قد طاف بها في عامها الخامس فأسمعها لحن الموت ، وأراها موكب الرحيل؟ .

اني لأتمثلها واقفة هناك ، تشهد جدها في ضجعة الموت ، وترى رأسه يسقط في حجر «عائشة» فتضعه في رفق على وسادة ، وتسبل عليه ثيابه ، وتغمض عينيه ، وتقبل الجبين العزيز ، ثم تنطلق إلى الرحبة فيرتفع الصياح والعويل ، متنقلاً من حجرة «عائشة» إلى دور النبي ، ومنتشراً من بعد ذلك إلى «أُحد» ، و«قباء» .

ويغسل الجسد ويطيّب بالمسك ، ويكفن بأثواب ثلاثة ، ثم يؤذن للناس فيدخلون جماعات ليودعوا أعزّ راحل . . .

أتمثلها هناك . . . تحدق في القوم وهم يحفرون حفرة عميقة في حجرة الزاوية الأثيرة ، ثم يأتي ثلاثة من الصحابة – تعرف فيهم زينب أباها علياً – فيدلون الجسد في الحفرة مترفقين ويبنون لبنات فوقه ، ثم . . . يهال الرمل والتراب ! . .

أتمثلها كذلك ، ثم أرنو إليها وهي تلوذ بحضن أمها «الزهراء» تلتمس مأمناً من خوف وفزع ، فإذا الأم حزينة ولهى ، ذاهبة الصبر ، مصدعة الكيان.

وتنعطف الطفلة إلى أبيها ، فتراه بادي الهم والحزن ، يتحدث شاكياً عن حقٍ للأسرة اغتصب ، ومكانة جحدت ، وقُربى من الرسول أهدرت ، وينظر في قلق وجزع إلى زوجه الغالية ، وقد أضناها حزنها على أبيها ، وآلمها جحود القوم لحقها ، فهي تخرج في المساء على دابة يقودها «علي» وتطوف بمجالس الأنصار مجلساً مجلساً ، تطلب لزوجها النصرة والتأييد ، فإذا جوابهم جميعاً :

– يا بنت رسول الله ، لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل – يعنون أبا بكر – ولو أن علياً سبق إلينا لما عدلنا به.

فيقول ابن عم النبي :

– أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟

وتعقب «الزهراء» :

– ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

* * *

حدث هذا بمرأى من الصبية أو مسمع ، وما أحسبها نسيت مع الأيام ، مشهداً أليماً طالعته في صباها حينذاك ، يوم حاول «عمر بن الخطاب» أن يقتحم بيت «الزهراء» كي يحمل «علياً» على البيعة «لأبي بكر» خشية تفرق الكلمة وتمزق الشمل ، فلما سمعت «فاطمة» أصوات القوم تقترب نادت بأعلى صوتها :

– يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من «ابن الخطاب» و«ابن أبي قحافة» ؟

فانصرف القوم باكين ، ومضى «عمر» محزوناً يسأل «أبا بكر» أن ينطلق معه إلى «فاطمة» ليسترضياها .

وانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لها ، فأتيا «علياً» فكلماه ، فأدخلها عليها ، فلما أخذا مجلسيهما حولت «فاطمة» وجهها إلى الحائط ، دون أن ترد عليهما السلام !

وتكلم «أبو بكر» فقال :

– يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي ، وإنك أحب إلي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أني سمعته ﷺ وآله يقول :

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة» .

فأدارت «فاطمة» إليهما وجهها الشاحب الحزين وسألت :

– أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ وآله تعرفانه وتعملان به ؟

قالا معاً : «نعم» .

فقالت :

– نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : «رضا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد

أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ » .

قالا : « نعم سمعناه من رسول الله ﷺ وآله » .

قالت :

— فإني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه .

وعادت فأشاحت بوجهها الحزين .

وخرج الزائران يبكيان ! ..

حتى إذا لقيا القوم ، سألهم « أبو بكر » أن يقيلوه من البيعة فأبوا ...

* * *

وتمضي الأيام التي أعقبت وفاة الرسول ، كئيبة مثقلة بالأحزان و« زينب » جالسة إلى فراش أمها العليلة بادية اللهفة والخوف والإشفاق .

وغشيت البيت سحب من الوجوم والانقباض « فما يذكر التاريخ أن فاطمة ضحكت بعد وفاة والدها حتى لحقت به » ، وما يعرف أنها غادرت مخدعها إلا إلى قبر الرسول ، تندبه وتبكيه ، وتأخذ بيدها حفنة من تراب القبر فتجعلها على عينيها ووجهها وهي تنشج :

ماذا على من شمّ تربة « أحمد » ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

فيبكي الناس لبكائها .

وجرؤ «أنس بن مالك» يوماً فاستأذن على «فاطمة» ومضى يتوسل إليها أن تترفق بنفسها ، وأن تلوذ بالصبر الجميل على المصاب الجليل ، فتجيبه سائلة :

—كيف مكنتك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله؟

فيبكي «أنس» بكاء شديداً ، وينصرف عنها متفجعاً ملتاعاً.

وضربوا بها المثل في الحزن ، وعدوها من البكائين الخمسة أو الستة في التاريخ : بكى «آدم» ندماً ، وبكى «نوح» قومه ، وبكى «يعقوب» ابنه «يوسف» ، وبكى «يحيى» خوف النار ، وبكت «فاطمة» أباها .

وسيأتي حفيدها بعدها فيأخذ مكانه إلى جانبها في هذه السلسلة الأليمة للبكائين ، ويضاف اسمه إلى أسمائهم فيقال : «... وبكى علي زين العابدين أباه الحسين» .

* * *

ثم أدركتها رحمة الله فلحقت بأبيها بعد قليل : قيل بعد ستة اشهر ، وقيل بل ثلاثة ، وقيل بل أقل من ذالك.

وتكرر المشهد أمام «زينب» .

ولكنها في هذه المرة كانت أنضج إدراكاً وأرهف حساً ، وفقد الأم جدير بأن ينضج الوعي ويذيق الطفولة مرارة الكأس .

لم يعد خوفها غامضاً ولا حزنها مبهماً . فهي تعرف أن أمها ترحل إلى غير عودة ،

وتمضي إلى غير رجعة ، وهذه هي — الابنة الباكية — تحدق في القوم وهم يودعون جثة أمها «الزهراء» في ثرى «البقيع» ، ثم يهيلون الرمل والتراب ، كما فعلوا بجدها ﷺ من قبل...

وتصغي «زينب» يومئذ إلى أبيها ، وقد تمهل عند قبر «الزهراء» يندبها مودعاً :

«السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ، إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍ!

«إنا لله وإنا إليه راجعون» فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم.

« والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم ! فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وان أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين» .

* * *

وتعود «زينب» إلى الدار. فتلفي الدار من أمها قفراً.

وتفتقدها إذا جن الليل وإذا طلع النهار ، فلا تجد إلا الوحشة والفراغ...

ويحدثها قلبها أن قد فقدت أعز وأجمل ما في الحياة ، فتحس لذلك ألماً مرهقاً يحاول أبوها أن يخففه عنها بفيض من رعايته.

وقد وفدت على دار «علي بن أبي طالب» من بعد وفاة «فاطمة» زوجات أخريات :

«أم البنين بنت حزام» وقد ولدت لعلي : العباس ، وجعفراً ، وعبدالله ، وعثمان .

وليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي التميمي ، وقد ولدت له : عبيدالله ، وأبا بكر .

وأسماء بنت عميس ، وقد ولدت له : محمداً الأصغر ويحيى .

والصهباء بنت ربيعة التغلبية ، وقد ولدت له : عمر ، ورقية .

وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع – وأمها زينب بنت الرسول ﷺ – فولدت له : محمداً الأوسط .

وخولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له : محمداً الأكبر المعروف بابن الحنفية .

وأم سعيد ابنة عروة بن مسعود الثقفية ، وقد ولدت له : أم الحسن ورملة الكبرى .

ومخبأة بنت امرىء القيس بن عدي الكلبية ، وقد ولدت له : بنتاً ماتت صغيرة .

وفدت هؤلاء الزوجات – وغيرهن من الجواري والإماء – لكن مكان «الزهراء» ظل شاغراً في بيت «علي» ، أما في قلوب أبنائها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ، فهو أبداً شاغر...

وتريد الرواية أن تنفرد «زينب» من دون هؤلاء الأشقاء ، بوصية من أمها «فاطمة» على فراش الموت وهي : «أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أماً» .

ولم تنس «زينب» هذه الوصية أبداً.

وإذا استطعنا أن نتناسى إلى حين ، أحزان تلك الصبية التي روّع عامها الخامس بشهود مأساة الموت مرتين ، في أعز الناس لديها وأحبهم إليها ، إذا استطعنا أن نكف لحظة عن التحديق في تلك الظلال التي حامت على مهدها ، والأحزان التي أرهقت صباها ، ألفينا جانباً آخر من الصورة مشرقاً ، حيث تبدو « زينب » في بيت أبيها ذات مكانة أكبر من سنها : أنضجتها الأحداث ، وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة ، فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم ، أماً لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وإيثار ، وان أعوزتها التجربة والاختبار.

وما بالغريب أن تشغل « زينب » مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها ، وإنما الغريب أن نقيس زمانها بزماننا ومكانها بمكاننا ، فنزعم ان هذه سن اللهو واللعب ! إن حياة القوم إذ ذاك كانت كفيلة بأن تجعل من يوم الفتاة شهراً ومن شهرها عاماً ! تلك الحياة البدوية التي تنضجها شمس الصحراء بحرارتها اللافحة ، وتهبها من حدة اليقظة وامتداد البصر ودقة الحس وسرعة الإدراك ، ما لا يتاح للفتاة في زماننا هذا الناعم المترف .

ولماذا نبعد ، وإن من أمهاتنا وجداتنا من حملن أعباء الزوجية والأمومة وهن في العاشرة أو بعدها بقليل ، على حين نرى — نحن بناتهن — أن سن الخامسة والعشرين هي السن الملائمة لحمل مثل هذه الأعباء؟ !

أجل ، ليس بالغريب أن تكون « زينب » في حداثتها أماً لشقيقيها وأختها ، فلقد تزوجت أختها الصغرى « أم كلثوم » وهي في مستهل حداثتها ، « عمر بن الخطاب » الخليفة الشيخ ، وتزوجت السيدة « عائشة بنت أبي بكر » قبل العاشرة ، ولم يرَ القوم

في مثل هذا ما يثير دهشة أو عجباً ، وإن رآها أكثر الغربيين في يومنا هذا ، أعجوبة الأعاجيب . وإنما قلت : أكثر الغربيين ، لأن فيهم قلة نادرة ، استطاعت أن تعقل هواها فقدرت الزمان والمكان ، ورأت في زواج كهذا أمراً معتاداً ..

* * *

المبحث الثاني

عقيلة بني هاشم

- الزوجـة
- الأبـنـاء
- البـيـت

عقيلة بني هاشم

اختار «علي» لفتاته، حين بلغت مبلغ الزواج، من رآه جديراً بها حسباً ونسباً. لقد تهافت عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش، ذوي الشرف والثراء، فكان «عبد الله بن جعفر» أحق هؤلاء جميعاً بزهرة آل البيت وعقيلة بني هاشم.

* * *

أبوه جعفر بن أبي طالب: ذو الجناحين وأبو المساكين، شقيق «علي» وحبيب «النبي» الذي قال فيه «أبو هريرة»: «ما ركب أحد المطايا... ولا احتذى النعال أحد بعد رسول الله ﷺ وآله، أفضل من جعفر بن أبي طالب».

هاجر بدينه إلى الحبشة إبان الاضطهاد، ثم رجع مع من رجع من المسلمين، وصادف وصوله إلى «المدينة» فتح «خيبر» فالتزمه الرسول وجعل يقبله بين عينيه ويقول:

«ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر»؟

وسمع رسول الله ﷺ وآله يقول: «الناس من شجر شتى، وأنا وجعفر من

شجرة واحدة».

سار مع الجيش الذي توجه إلى بلاد الروم في السنة الثامنة من الهجرة، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة، (فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس...).

ومضى جنود الإسلام حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع «هرقل» فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، ودارت المعركة طاحنة: قاتل «زيد» براية الرسول حتى مزقته رماح القوم، فأخذها «جعفر» وقاتل بها حتى قطعت يمناه فأخذها بيساره وقاتل حتى قطعت يسراه، فاحتضن الراية حتى قتل، فكان أول طالبي قتل في الإسلام.

وأم عبد الله بن جعفر، «أسماء بنت عميس»: أخت «ميمونة أم المؤمنين» و«سلمى» زوج حمزة بن عبد المطلب، و«لبابة» زوج العباس بن عبد المطلب.

تزوجها «جعفر» فكانت أم أولاده جميعاً، فلما قتل تزوجها «أبو بكر» فولدت له محمداً، ثم توفي عنها فخلف عليها «علي بن أبي طالب» فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر. وفي رواية «الواقدي» أنها ولدت له عوناً ويحيى.

* * *

ولد زوج «زينب»، «عبد الله بن جعفر» بأرض الحبشة، لما هاجر أبواه إليها، فكان أول من ولد بها من المسلمين. وينقل «ابن حجر» في (الإصابة ٣ – ٤٩) أن الرسول قال فيه: «وأما عبد الله فيشبه خُلُقي وخَلْقي» ثم أخذ بيمينه فقال: «اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه – قالها ثلاث مرات – وأنا

وليُّهم في الدنيا والآخرة».

كان «عبد الله» سيداً شهماً كريماً عفاً، سمي قطب السخاء، لا يبيع معروفاً ولا يرد سائلاً، عن «محمد بن سيرين» أن رجلاً من التجار جلب سكراً إلى المدينة فكسد عليه فبلغ خبره «عبد الله بن جعفر» فأمر قهرمانه أن يشتريه ويهبه للناس.

ووجه إليه «يزيد بن معاوية» مالاً جليلاً هدية، فلما تلقى عبد الله المال، فرقه في أهل «المدينة» ولم يدخل منزله منه شيئاً، فذلك قول «عبد الله بن قيس الرقيات»:

وما كنت إلا كالأغر «ابن جعفر» رأى المال لا يبقى، فأبقى له ذكرا

وقول «الشماخ، معقل بن ضرار»:

انك يا ابن جعفر نعم الفتى ونعم مسأوى طارق إذا أتى

ورب ضيف طرق الحي سرى صادف زاداً، وحديثاً ما اشتهى

وروى «ابن قتيبة» في (عيون الأخبار) أن «معاوية» لما قدم «المدينة» منصرفاً من «مكة»، بعث بهداياه وصلاته إلى «الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر» وغيرهم من أشراف قريش. ثم أوصى رسله أن يتريثوا حتى يروا ما يفعل كل رجل بهديته، فلما خرج الرسل قال معاوية لمن حوله:

ـ إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم...

أما «الحسن» فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ويهب ما بقي من حضره، ولا ينتظر غائباً.

وأما «الحسين» فيبدأ بأيتام من قتل في صفين، فإن بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن.

وأما «عبد الله بن جعفر» فيقول لمولاه: يا بديح، أقض به ديني، فإن بقي شيء فأنفذ به عداتي.

وأما فلان... الخ.

قالوا: وعاد الرسل فحدثوا بما رأوا وما سمعوا، فكان الأمر كما قال «معاوية».

ولقد أسرف «عبد الله بن جعفر» على نفسه في الجود، لا يبالي أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه.

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها: فليتق الله سائلـــــه

* * *

وأثمر الزواج المبارك ثمرته، فولدت «زينب بنت الزهراء» لعبد الله بن جعفر أربعة بنين: علياً، ومحمداً، وعوناً الأكبر، وعباساً، كما ولدت له فتاتين، إحداهما «أم كلثوم» التي أراد «معاوية» بدهائه السياسي، أن يزوجها من ابنه «يزيد» كسباً للمعسكر الهاشمي، فترك «عبد الله» أمر فتاته لخالها «الإمام الحسين» الذي آثر بها ابن عمها: «القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب».

ولم يفرق الزواج بين «زينب» وأبيها واخوتها، فقد بلغ من تعلق «الإمام علي» بابنته وابن أخيه، أن أبقاها معه، حتى إذا ولي أمر المسلمين وانتقل إلى الكوفة، انتقلا معه فعاشا في مقر الخلافة، موضع رعاية أمير المؤمنين وإعزازه، ووقف عبد

الله بجانب عمه في نضاله الحربي ، فكان أميراً بين أمراء جيشه في «صفين».

وعرف الناس مكانة «عبد الله» من بيت النبوة ، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة إلى أمير المؤمنين ، وإلى ولديه الحسن ، والحسين ، فلا يرد له طلب ولا يخيب رجاء. جاء في (الإصابة : ٤ – ٤٨) نقلاً عن «محمد بن سيرين» أن دهقاناً من أهل السواد كلم «ابن جعفر» في أن يكلم «علياً» في حاجة ، فكلمه ، فقضاها ، فبعث إليه الدهقان أربعين ألفاً فردها قائلاً : إنا لا نبيع معروفاً.

وروى أبو الفرج الأصبهاني في (مقاتل الطالبيين) انه لما مات «الحسن بن علي» أراد آل البيت أن يدفنوه مع رسول الله كما أوصى قبل وفاته ، (فركب بنو أمية في السلاح ، وجعل مروان بن الحكم يقول : يا رب هيجا هي خير من دعة. أيدفن عثمان في أقصى البقيع ، ويدفن الحسن في بيت رسول الله ﷺ؟ لا يكون ذلك ابداً ، وأنا أحمل السيف).

وأبى «الحسين» أن يدفن أخاه إلا مع جده ، فكادت الفتنة تقع ، لولا كلمة من «عبد الله بن جعفر» لابن عمه «الحسين» ، قال :

«عزمت عليك بحقي ألا تكلم بكلمة».

ومضى بابن عمه «الحسن» إلى البقيع ، حيث ثوت أمه «الزهراء» وانصرف «مروان بن الحكم».

* * *

كيف كانت «زينب» تبدو في ريعان شبابها؟...

تمسك المراجع التاريخية عن وصف صورتها لنا في تلك الفترة ، إذ هي في

خدرها محجبة لا نكاد نلمحها إلا من وراء ستار، غير انها سوف تخرج من خدرها بعد عشرات السنين، في محنة كربلاء وإذ ذاك يصفها لنا من رآها رأي العين فيقول كما نقل «الطبري»:

«... وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس طالعة... فسألت عنها، فقالوا: هذه زينب بنت علي».

ويصفها عبد الله بن أيوب الأنصاري - وقد رآها عقب وصولها إلى مصر، بعد مصرع الحسين، فيقول:

«... فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر».

وكانت «السيدة» يومئذ في الخامسة والخمسين من عمرها: غريبة متعبة، مفجوعة ثكلى. فكيف بها إبان الشباب قبل أن تأكلها السنون وتطحنها الأحزان وتجرعها كأس الثكل حتى الثمالة؟

أما شخصيتها، فيبدو اننا سوف ننتظر - هنا أيضاً - ريثما تكشف الأحداث عن قوة جنانها وثبات فؤادها، وتبديها لنا في أروع صورة من الشجاعة والإباء والترفع.

وسيبدي المؤرخون إعجابهم بموقفها من «يزيد بن معاوية» وينقل لنا مثل «ابن حجر» في (الإصابة: ٨ - ١٠٠) ما بدا من قوة برهانها وقوة حجتها.

وسوف يسمعها أهل عصرها في كربلاء، وفي مجلس والي «الكوفة»، وفي حضرة «يزيد بن معاوية». فتروعهم بلاغتها بقدر ما تروعنا اليوم، ويشهدون لها بسحر البيان.

روى «الجاحظ» في «البيان والتبيين» عن (خزيمة الأسدي) أنه قال :

«دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين... فلم أر خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب».

هذه هي «زينب» كما رأيناها بعد في كربلاء ، وكما لاحت لنا منها ملامح في إبان شبابها . حيث نسمع انها كانت تشبه أمها لطفاً ورقة ، وتشبه أباها علماً وتقى .

وكان لها — فيما تقول بعض الروايات — مجلس علمي حافل ، تقصده جماعة من النساء اللواتي يردن التفقه في الدين .

وهكذا اجتمع لها ما لم يجتمع لسواها من نساء جيلها ، فكانت (عقيلة بني هاشم) يروي عنها «ابن عباس» فيقول : (حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي) .

وغلب عليها هذا اللقب ، فكان يقال «العقيلة» فيعرف انها هي !

ويعتز أبناؤها بهذا ، فيعرفون (ببني العقيلة) .

* * *

المبحث الثالث

بطلة كربلاء

- نذر العاصفة
- رحيل
- دليل الركب
- محاولة.. وإصرار
- نحو وادي الموت
- يوم الطف

نذر العاصفة

لم نكن لنلقي بأنفسنا في غمار الأحداث السياسية العنيفة التي شهدها (البيت العلوي) لو أن «زينب» ظلت بعيداً عن ميدان الأحداث وبقيت في الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لأعباء الزوجية والأمومة.

أما وقد ساقتها الظروف إلى صميم الدوامة الهائلة التي رأيناها تلف الدولة الاسلامية في عنف، فنحن مضطرون إلى أن نمضي فنرقب تلك النذر التي آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء.

* * *

وقد تمر فترة طويلة تغيب «زينب» خلالها في غمرة الأحداث هذه، بل قد نفقد أثرها أحياناً في ضجة الدوي الراعد الذي كان يصم الآذان، ويدير الرؤوس، لكنا سنجدها أخيراً بعد أن تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء).

ومن هنا يبدو عذرنا إذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظانٌّ انها لا

تمس «زينب» إلا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب، ومكانها من البيت الهاشمي، على حين نرى في كل هذه المعارك، مقدمات لها خطرها في توجيه حياة «زينب» وأثرها في إعدادها لدورها الرهيب.

* * *

قدر «لزينب» أن ترى مجرى الحوادث عن كثب: شهدت الأمر ينتقل من «أبي بكر» إلى «عمر» ثم إلى «عثمان» عام ٣٥ هـ، لتبدأ المعركة الطاحنة، معركة الفتنة التي لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا.

سمعت أصداء صوت «عائشة أم المؤمنين» وهي تحض على الثورة، وتطالب بدم الشهيد، وتصيح في الناس: «إن الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة، قد سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم، ويشرد من بعدهم...».

ثم تخرج «عائشة» على الجمل الأنكد، قائدة على جمع الخارجين على «علي، أمير المؤمنين».

وما كان «علي» قاتِلَ «عثمان» أو المحرض عليه أو الراضي به، ولا كانت «عائشة» راضية عن «عثمان» أو ولية دمه المسفوك، فلطالما حرضت عليه وتحدثت فيه بالنقد المثير، والمؤرخون لم ينسوا لها أنها غضبت على «عثمان» يوماً لأنه نقص عطاءها، فتربصت به حتى رأته يخطب في الناس، فدلت قميص رسول الله ﷺ وآله ونادت: «يا معشر المسلمين، هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان

سنته » !

وطالما سمعت تقول : اقتلوا نعثلاً — أي عثمان — فإن نعثلاً قد كفر.

ولا أعرف من المؤرخين من يشك في أنها ما كانت لتثور، لو أن الأمر لم ينتقل إلى «علي بن أبي طالب». روى «المدائني» أنه لما قتل «عثمان» كانت «عائشة» بمكة، وبلغها النبأ وهي خارجة، فقالت وهي لا تشك في أن «طلحة» صاحب الأمر: «بعداً لنعثل... إيه يا صاحب الإصبع — وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت إصبعه دفاعاً عن الرسول في (أُحد) — إيه أبا شبل، إيه يا ابن عم! لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل».

وكان «طلحة» قد أخذ مفاتيح بيت المال عقب مقتل «عثمان» وأخذ نجائب كانت للخليفة القتيل في داره.

ثم لما عرفت «عائشة» بما تم من البيعة «لعلي»، أمرت برد ركائبها إلى مكة وهي تقول:

— قتلوا ابن عفان مظلوماً !

فقال لها من يسمعها :

— ألم أسمعك تقولين : بعداً لنعثل، وقد رأيناك من أشد الناس عليه؟

وروى «الطبري» في تاريخه أنه لما قتل «عثمان» تساقط الهراب إلى «مكة»، و«عائشة» هناك تريد العمرة، فأخبروها أن قد قتل «عثمان رضي الله عنه» فقالت ما معناه :

– هذا غب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح .

حتى إذا قضت عمرتها وخرجت ، لقيها رجل من أخوالها من بني ليث ، يقال له «عبيد بن أبي سلمة» المعروف «بابن أم كلاب» ، فقالت متسائلة : «مهيم» !

فأصم ودمدم ...

فقالت : «ويحك ، علينا أو لنا» ؟

قال : «قتل عثمان» وسكت .

قالت : «ثم صنعوا ماذا» ؟ فقال :

– أخذها أهل «المدينة» بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز : اجتمعوا على «علي بن أبي طالب» .

فقالت :

«والله ليت أن هذه انطبقت على هذه – تعني السماء على الأرض – إن تم الأمر لصاحبك . ردوني ، ردوني» .

وارتدت إلى مكة وهي تقول كلمتها :

– قتل والله «عثمان» مظلوماً . والله لأطلبن بدمه ...

فسألها «ابن أم كلاب» :

– ولمَ ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر .

أجابت :

– انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول .

فقال لها «ابن أم كلاب» في أبيات عدة أوردها «الطبري» :

منك البـــداء ومنك الغير ومنك الريـــاح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتـل الإمـام وقلت لنا : إنه قد كفر!
فهبنـا أطعنـاك في قتلـه وقـاتلـه عنـدنـا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر

فأدارت «عائشة» راحلتها وعادت إلى «مكة» لا تلوي على شيء...

وأثارتها فتنة عمياء صماء ، انتقاماً من «علي» ذاك الذي لم تسالمه أبداً منذ دخلت بيت محمد – ﷺ وآله – صبية في العقد الأول من عمرها ، ولم تنس له قط أنه زوج «فاطمة» بنت «خديجة» الودود الولود التي شغلت من قلب رجلها – في حياتها وبعد المات – مكاناً لم تستطع «عائشة» بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، أن تزحزحها عنه .

كذلك لم تغفر «عائشة» لـ «علي» أبداً موقفه من قصة الإفك ، فقد كان ممن أشار على الرسول – ﷺ وآله – بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقيل إنه قال للرسول عليه الصلاة والسلام : «سل الخادم وخوفها ، وإن أقامت على الجحود فاضربها» .

وقيل كثير وكثير... أصغت له «عائشة» ووعته ، ولم تستطع أن تتناساه!

* * *

كانت «زينب» حين شبت الفتنة، في الثلاثين من عمرها، تعيش مع زوجها وبنيها في دار الخلافة، وترقب عن كثب وميض تلك الثورة التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها، وتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في جيش الشام «بصفين» ثم يفرغ منه ليلقى الخوارج في «النهروان» وهكذا مدى خمس سنوات طوال.

ولا يذكر التاريخ هنا «لزينب» مشاركة فعلية في المعركة، وإنما انفردت «عائشة» بدور البطولة في تلك المأساة المعروفة في التاريخ باسم موقعة «الجمل» الذي ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع المعارضة الثائرة، وكانت هي القائدة العليا للجيش: تصدر الأوامر، وتعين الأمراء، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار مصدرة بالعبارة التالية:

«من عائشة ابنة أبي بكر. أم المؤمنين، حبيبة رسول الله ﷺ وآله، إلى ابنها الخالص فلان...

«أما بعد فإن أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا، فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي».

ولباها من لبى، ورد عليها من يقول:

«... أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت ورجعت إلى بيتك، وإلا فأنا أول من ينابذك».

أو يقول:

«رحم الله أم المؤمنين! أمرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت

به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه » !

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم ، في سخاء ، وأقبلوا من كل حدب وصوب إلى حيث وقفت «عائشة» بمكة تدعو للثورة. فلما فصل جيشها من «مكة» كانت عدته ثلاثة آلاف سارت بهم حتى دخلت «البصرة» ، ووقفت تخطب في الجمع المحتشد هناك :

«... كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا... فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً ، ونجدهم فجرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون. فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر...

فهاج الناس وماجوا ، وصرخت (عائشة) «اسكتوا أيها الناس».

فأسكت لها الناس. فقالت :

«إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً... قتلوه محرماً ، ذبحاً كما يذبح الجمل. ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها. وأدمتْ أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً. أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس. وليسلّطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب.

«أيها الناس :

«إنه ما بلغ من ذنب «عثمان» ما يستحل دمه ، مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم «ابن أبي

طالب» بغير مشورة من الجماعة، تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم؟

«ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان».

ووجدت «عائشة» في السامعين من يرد عليها:

«يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون... إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك!»

وعقب شاب من بني سعد، وجه كلامه إلى (طلحة والزبير):

– أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ وآله، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك، وأرى معكما أم المؤمنين، فهل جئتما بنسائكما؟

قالا: لا.

قال: فما أنا منكما في شيء.

ثم أنشد:

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطّي والأسياف

هتكت بطلحة والزبير ستورها   هــذا المخبر عنهم والكـافي

وتصدى لها «الأحنف بن قيس» يقول: إني سائلك ومغلظ لك في المسألة، فلا تجدي عليّ: أعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله في خروجك هذا؟»

قالت: «لا».

فسأل:

«أفعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله أنك معصومة عن الخطأ؟»

أجابت: «لا».

قال:

«صدقت، إن الله رضي لك (المدينة) فأبيت إلا البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيه ﷺ وآله، فنزلت بيت أحد بني ضبة، ألا تخبريني يا أم المؤمنين، أللحرب قدمت أم للصلح؟».

أجابت وهي تكظم غيظها:

— بل للصلح.

فقال لها:

«والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى، ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم؟».

فلم تدر بما تجيب، واكتفت بأن تقول في ألم: «لقد استغرق حلم الأحنف

هجاؤه إياي ، إلى الله أشكو عقوق أبنائي » .

* * *

وحين تلاقى الجيشان واحتدم القتال ، جعلت « القائدة » تلهب حماسة عسكرها ، فهي تلتفت يمينها وتسأل : « من القوم؟ » .

أجابوا : « بكر بن وائل » .

قالت : لكم يقول القائل :

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم   من العزة القعساء بكر بن وائل

وتثني إلى يسارها فتسأل : « من القوم عن يساري؟ »

فيجيبون : بنوك الأزد .

فتهتف بهم : يال غسان ! حافظوا على جلادكم الذي كنا نسمع به :

* وجالد من غسان أهل حفاظها *

وتقبل على كتيبة بين يديها فتقول : من القوم؟

قالوا : بنو ناجية .

فتقول : بخٍ بخٍ ! سيوف أبطحية قرشية ، فجالدوا جلاداً يتفادى منه فكأنما أشعلت فيهم من الحماسة ناراً !..

* * *

وتتابع حملة اللواء على خطام جملها مستبسلين، يقول قائلهم :

يا أمنا يا زوجة النبي
يا زوجة المبارك المهدي
نحن بنو ضبة، لا نفر
حتى نرى جماجماً تخر

فيتصدى لها من معسكر «علي» من يناجزه وهو يرتجز :

يا أمنا، أعق أم تعلم !
والأم تغدو ولداً وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلي منه يد ومعصم؟ !

ويتقدم آخر، فيمسك خطام الجمل ويمر على جثة واحد من جيش «علي» قائلاً :

أسامع أنت مطيع لعلي
من قبل أن تذوق حد المشرفي
وخاذل في الحق أزواج النبي؟

ثم يخلص إلى «عائشة» وهو يهتف :

يا أمنا يا «عيش» لن تراعي
والأزد فيها كرم الطباع

فيلقاه من أصحاب «علي» من يجندله مرتجزاً :

جردت سيفي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهد

حتى عقر «الجمل» ، وكادت «عائشة» تتلف لولا أن أنقذها «علي» ، ونادى مناديه :

«ألا يجهز على جريح ، ولا يتبع مول ، ولا يطعن في وجه مدبر . ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن» .

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يحدق في جثث القتلى وقد بلغوا نحو عشرة آلاف : كلهم عرب ، وكلهم مسلمون ، وفيهم صحابة الرسول ﷺ وآله ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية :

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث . ورفع يديه إلى السماء هاتفاً في ضراعة وابتهال :

إليك أشكو عجري وبجري
ومعشراً أغشوا على بصري
قتلت منهم مضري بمضري
شفيت نفسي وقتلت معشري

ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة.

* * *

وأعيدت «عائشة» إلى «المدينة» بعد أن انفردت ببطولة المعركة ، فما تركت لامرأة سواها مكاناً إلى جانبها ، اللهم إلا أن تكون كلمة عابرة أو مشهداً ثانوياً ليس بذي بال :

ودت «أم سلمة» أن تخرج لتنصر «عليا» ، لكنها كرهت أن تبتلى – وهي أم المؤمنين – بمثل ذاك الخروج ، فجاءت «عليا» وقدمت إليه ابنها «عمر» قائلة :

«يا أمير المؤمنين . لولا أن أعصي الله عز وجل ، وأنك لا تقبله مني ، لخرجت معك . وهذا ابني عمر – والله لهو أعز عليّ من نفسي – يخرج معك فيشهد مشاهدك» .

وأتت «عائشة» فقالت لها :

«أي خروج هذا الذي تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة ! ! لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي : ادخلي الفردوس . لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ ! » .

لكن «عائشة» لم ترجع ...

بل مضت في طريقها . وتخلفت أمهات المؤمنين عنها . – وكن قد خرجن معها إلى مكة – مؤثرات أن يرجعن إلى «المدينة» ، إلا «حفصة بنت عمر» فإنها قالت : «رأيي لرأي عائشة تبع» .

وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة . فحال أخوها «عبد الله بن عمر» دون ذاك ، ولم تجد «حفصة» بداً من الاعتذار والقعود ! .

* * *

وعلى هذا النحو، استأثرت «عائشة» ببطولة الموقعة وقيادتها. وتوارت «زينب» فلم نلمح لها أثراً ولم نسمع لها صوتاً. ذلك أن القدر كان يدخرها لبطولة من نوع آخر ويحتفظ بها وراء الستار حتى يحين أوان ظهورها في «كربلاء» بعد ربع قرن من الزمان.

لكنها مع ذلك كانت هناك في دار الخلافة، حيث مركز الأحداث، وقطب رحاها! كانت هناك - كما قلنا - ترمق أباها أمير المؤمنين في حب وقلق، وهو يخوض المعركة تلو المعركة، ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في «صفين» ثم يفرغ منه ليلقى «الخوارج» في «النهروان»؛ وهكذا مدى خمس سنوات، لم يهدأ فيها يوماً. حتى كانت تلك الليلة المشؤومة، ليلة الجمعة لتسع عشرة خلون من رمضان عام ٤٠ هـ. وقد خرج الإمام في الفجر يصلي بالناس في المسجد الأعظم بالكوفة، و«زينب» في الدار ما تدري إلا وضجة تعلو آتيةً من ناحية المسجد، مبددة أصداء الهتاف الذي جلجل منذ لحظات من مآذن الكوفة: حي على الصلاة، حي على الفلاح! الله أكبر، الله أكبر!..

وأمسكت «زينب» قلبها في ذعر مبهم، وأصغت في وجوم وقلق إلى الضجة وهي تقترب من دار الخلافة شيئاً فشيئاً، حتى إذا بلغت ساحة الدار ميزت «زينب» صيحات مروعة، تعلن ملء الفضاء: أن قد قتل أمير المؤمنين!..

وهنا جمعت «زينب» كيانها الموشك على التداعي، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولاً على الأعناق، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة، من سيف «ابن ملجم».

وأكبت عليه تقبله ، وتغسل جرحه بدموعها وأختها «أم كلثوم» إلى جانبها تصيح بالقاتل وقد جيء به مكتوف اليدين :

– أي عدو الله ، لا بأس على أبي ، والله مخزيك .

وما أحسب «زينب» إلا سمعت من العواد قصة «ابن ملجم» هذا : سمعت أنه ثالث ثلاثة من الخوارج ، ائتمروا «بعلي ومعاوية وعمرو» ثأراً لإخوانهم قتلى «النهروان» وحسماً لذاك الداء الذي استشرى منذ مقتل «عثمان» .

وقد خرج «ابن ملجم» من «مكة» وسار حتى قدم «الكوفة» فزار رجلاً من أصحابه من «تيم الرباب» فصادف عنده «قطام بنت الأخضر» – وقد قتل أبوها يوم النهر– وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها فلما رآها «ابن ملجم» أخذت قلبه ، وأراد أن يخطبها فسألته :

– ما الذي تسمي لي من الصداق؟

أجاب : احتكمي بدا لك .

فقالت في عزم وجد :

– أنا محتكمة عليك ثلاثة آلاف درهم ، وعبداً ، وقينة ، وقتل «علي بن أبي طالب» !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

لك جميع ما سألت . فأما قتلي «علياً» فأنى لي بذاك؟

قالت على الفور:

– تلتمس غرته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي...

فنظر إليها متأملاً ثم قال :

– أما والله ما أقدمني هذا المصير – وقد كنت هارباً منه لا آمن مع أهله – إلا ما سألتني من قتل «علي» فلك ما سألت !..

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياماً ثم أتاها مع صاحبيه في الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم... فكان ما كان :

فلم أرَ مهراً ساقـــه ذو سماحـــة
كمهر «قطـام» من فصيح وأعجم

ثلاثـــة آلاف ، وعبـــد ، وقينـــة
وضرب «عليّ» بالحسام المصمم

ولا مهر أغلى من عليّ وإن علا
ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وتكاثر العواد يقفون بباب أمير المؤمنين جازعين داعين ، فإذا لم يؤذن لهم في الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الإمام :

– قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فوالله لقد كان الله في صدرك عظيماً !!.

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من «أثير بن عمرو بن

هانئ» وكان متطبباً يعالج الجراحات ، أصابه «خالد بن الوليد» مع أربعين غلاماً في «عين التمر» فسباهم .

ونظر «أثير» إلى جرح الأمير، فدعا برئة حارة وانتزع عرقاً منها فأدخله في الجرح ثم استخرجه ، فإذا عليه بياض الدماغ ، فقال له يائساً :

— يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك .

فدعا الإمام ولديه «الحسن والحسين» ، وتهيأ لكتابة وصيته ...

ومن تلك اللحظة ، لم تدع «زينب» فراش أبيها ...

كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل .

وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين !

ضرب في فجر الجمعة ، فمكث يومين اثنين ، وتوفي ليلة الأحد . لإحدى وعشرين مضت من رمضان عام ٤٠ هـ ، على أرجح الأقوال .

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية «معاوية» .

وترك العقيلة «زينب» لتشهد آل البيت وهم يصلون النار التي أشعلتها فتنة الثأر «لعثمان» .

* * *

أما «عائشة» فحين أتاها النعي ، تمثلت بقول الشاعر :

فـألقت عصاهـا واستقر بها النوى

كما قرّ عينـًـا بـالإيـاب المسافر

ثم سألت : من قتله ؟.

فقيل لها : رجل من مراد.

فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

وسمعتها «زينب بنت أم سلمة» فسألتها منكرة :

– ألعلي تقولين هذا ؟

فأجابت «عائشة» :

– إني أنسى ، فإذا نسيت فذكروني . ثم تمثلت :

ما زال إهداء القصائد بيننا باسم الصديق ، وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

وفي رواية أنه : لما جاء «عائشة» قتل «علي» عليه السلام ، سجدت !

قالوا : وكان الذي جاءها بنعيه ، «سفيان بن أبي أمية».

* * *

أجل ، قالت «عائشة» حين نعي «علي» :

* فألقت عصاها واستقر بها النوى *

ولكنها لم تلق عصاها ولم تستقر بها النوى ، فإن مقتل «علي» لم يكن سوى حلقة

من سلسلة الفواجع التي ألمت بآل البيت . ودفعت بهم طعاماً لنار الفتنة العمياء التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها .

ثكلت «زينب» أباها .

وجاء دور شقيقها «الحسن» !

بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

«... لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ! » .

ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه !

وانتهى هذا الدور — دور الحسن — بعد عشر سنوات .

حاول في أولها أن يقف لخصمه الداهية «معاوية» ، فخذله أهل «الكوفة» الذي قال فيهم «عدي بن حاتم» : «... ألسنتهم كالمخارق في الدعة ، فإذا جد الجد فراوغون ، كالثعالب ! »

وإذ ذاك تنازل عن الخلافة «لمعاوية» بعد أن شد بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام

بغلته وطعنته في فخذه ! فازداد لهم بغضاً ومنهم رعباً ، وولى عنهم وهو يقول : «يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي».

ومرّضت «زينب» أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها إلى حين ، وظنت أن نزول «الحسن» عن حقه منجيه من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف السفاحين !

ولكن «معاوية» كان يريد الخلافة ملكاً أموياً ، ولن يستطيع أن يأخذ البيعة لابنه «يزيد» والحسن بن علي حي يتنفس !..

ولم يكن عهده «للحسن» أن يلي الأمر من بعده ، هو الذي يشغله ويهمه ، فما لمثل «معاوية» عهد ، وإنما شغله أو همه أن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلاً من «الحسن بن علي» ، سبط الرسول.

وإن «معاوية» ليذكر تماماً ، يوم خطب في الناس — بعد أن تنازل له الحسن — فذكر «علياً» فنال منه ، ونال من «الحسن» ، فقام «الحسين» ليرد عليه فأخذ «الحسن» بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

«أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر. وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدك حرب ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً».

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين...

وارتفع صوت يقول : ونحن نقول : آمين !

وردد آخرون : ونحن أيضاً نقول : آمين !

أيمكن أن يحقق «معاوية» حلمه ، و«الحسن» ملء قلوب هؤلاء الناس وإن خذلته سيوفهم رهبة من «معاوية»؟!

قالوا : وانصرف «الحسن» بعد تنازله عن الخلافة إلى «المدينة» فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد «معاوية» البيعة لابنه «يزيد» فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر «الحسن بن علي» فدس له سماً.

وكان الذي تولى ذلك لمعاوية من «الحسن» ، زوجه «جعدة بنت الأشعث بن قيس».

أرسل إليها «معاوية» : «إني مزوجك بيزيد ابني . على أن تسمي زوجك الحسن ابن علي». ووعدها بمائة ألف درهم فقبلت ، وسمت «الحسن» ، فدفع لها «معاوية» المال ولم يزوجها من «يزيد» معتذراً إليها بأن حياته غالية عليه ! فخلف عليها رجل من «آل طلحة» فأولدها ، فكان إذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كلام ، عيروهم وقالوا : يا بني مسمة الأزواج...

* * *

وشيعت «زينب» أخاها ، ثم آبت إلى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها إلى جوار أمها «الزهراء» بالبقيع .

* * *

الهجرة

جاء دور «الحسين» فتهيأت «زينب» لترعى أخاها وهو يرى الأمر يخرج من بيت «النبي» إلى بيت «أمية» ملكاً موروثاً.

ذلك أنه لم تكد تمضي على وفاة «الحسن» ست سنوات، حتى دعا «معاوية» جهراً إلى البيعة لابنه «يزيد» من بعده، فاستوثق له الناس راضين أو مكرهين، غير خمسة نفر لم يكن فيهم من هو أحق بالغضب لهذا العدوان من «الحسين بن علي» ولد «الزهراء» وسبط الرسول.

وعاش «معاوية» أربع سنوات بعد أخذه الناس بالبيعة لابنه و«الحسين» ثابت عند موقفه، لا يرضى أن يعترف بيزيد ولي عهد للدولة التي أقامها جد الحسين.

إن يكن الأمر وراثة فمن أحق به من «الحسين»: غذي النبوة وابن بنت الرسول؟

وإن يكن اختياراً للأصلح، فمن أولى بالخلافة من «الإمام الحسين» التقي النقي والعالم الفقيه؟

أفأنكروا على آل الرسول حقهم في ميراث أبيهم ، لكي يرثها فتى من بني أمية خليع رقيق الدين ، صاحب لهو وشراب ومجون؟

أتصرف الخلافة عن حفيد «خديجة» أم المؤمنين وبطلة الإسلام الأولى ، إلى حفيد «هند» آكلة الأكباد وبطلة الانتقام الوحشي في موقعة «أُحد»؟

إن الإسلام لم يكن قد نسي بعد ما ناله من «هند» في «أُحد» ، وإن الجراح التي أحدثتها «هند» بالمسلمين لم تكن قد التأمت بعد . فما زال فيهم — يومئذ — أحياء شهدوا «هنداً» حين ظهرت في «مكة» تعير قريشاً بهزيمتهم الشنعاء أمام فئة قليلة من المؤمنين ، انتصرت على جيش لأبي سفيان — زوج هند وزعيم المشركين — كامل العدة والعدد ، وتركت على الساحة الدامية حول ماء «بدر» جثث الأبطال الصناديد من قوم «هند» :

أبيها «عتبة» وقد أطاحت رأسه ضربة باترة من سيف «حمزة بن عبد المطلب» .

وأخيه «شيبة» وقد تكفل به «حمزة» أيضاً .

وابنه «الوليد» ، وقد صرعه «علي بن أبي طالب» .

و«أبي جهل» قائد جيش الكفار .

وعشرات آخرين ، تركوا هنالك مجندلين ! ..

يومئذ أقسمت «هند» ألا يقربها زوجها «أبو سفيان» حتى يثأر لقتلاها . ثم ما زالت بالمكيين حتى تجمعوا في ثلاثة آلاف مقاتل ، يقودهم «أبو سفيان» وفيهم مائتا فارس تحت إمرة «خالد بن الوليد» .

وخرجت هي على رأس ذاك الجيش الزاحف إلى «المدينة» تحف بها نسوة أخريات، ينشدن أغنية الدم ويرتلن نشيد الثأر. وخلت هند بعبد لها «حبشي» اسمه «وحشي» فمنته ووعدته بالحرية، إن هو جاء برأس «حمزة» ثمنا لفك رقبته من غل الرق!..

وتراءى الجمعان عند سفح «أحد» فأشارت «هند» إلى نسوتها فرحن يضربن على الدفوف وهي في وسطهن ترقص وتغني. وتحرض وتثير!..

ولما حمي وطيس القتال، اقترب «وحشي» من «حمزة» وهو في شغل الإجهاز على بعض المشركين، وهزّ العبد حربته في الهواء ثم أطلقها فأصابت «حمزة» على غرة، وأردته على الرمال يتخبط في دمه، ثم رقد ساكناً...

هنالك انطلق «وحشي» يعدو نحو «هند»، فلم تكد تلمحه على البعد. حتى عرفت ما جاء من أجله، فسارت إليه صامتة، وأسلمته يدها ليقودها إلى حيث يرقد المحارب البطل فما رأته حتى صاحت صيحة فرح هائج. وانحنت على جثة الشهيد تمزقها. وتجدع الأنف، وتصلم الأذنين، وتسمل العينين ثم بقرت بطنه وانتزعت كبده التي كانت لا تزال حارة وجعلت تلوكها بأسنانها في غبطة واشتهاء، والنسوة من ورائها يقلدنها ويتخذن لأنفسهن قلائد وأقراطاً من آذان الشهداء وأنوفهم وأصابعهم!

وفي الحق أن «هنداً» أسلمت بعد ذاك كما أسلم زوجها عام الفتح. لكن هذا لم يمح صفحتها الأولى، ولم يحل دون نبز أبنائها «ببني آكلة الأكباد».

* * *

و«يزيد» حفيد «هند» تلك، أورثه أبوه الخلافة ملكاً عضوداً هرقلياً، كلما

مات هرقل قام هرقل ، وفي المسلمين صحابة أجلاء ، على رأسهم الإمام «الحسين» ولد الزهراء ، وحفيد خديجة ! !

كلا ! يأبى الإسلام ذلك ، ويأباه «الحسين» .

وإن «معاوية» ليعرف هذا حق المعرفة ، ويعرف مَنِ «الحسين» ومَنْ «يزيد» ، فكانت وصيته الأخيرة لولي عهده :

«إني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ...

«وإني لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير» .

ويمضي «معاوية» فينظر في أولئك الثلاثة ، ويقيس مدى خطرهم على وارثه وولي عهده فلا يرى فيهم من هو أخطر على «يزيد» من «الحسين» فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ وآله ، ومن ثم فهو يوصي ولي عهده بأن يدع «ابن عمر لعبادته فإنه رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قبل يزيد» وأن يأخذ «ابن الزبير» بالشدة «فإنه خب ضب» أما «الحسين» فإن «معاوية» يلوذ بالأمل . ويدعو ليزيد : «أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ... ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه» .

* * *

استقبلت «زينب» مع بني هاشم ، خلافة «يزيد بن معاوية» في شهر رجب عام ٦٠ هـ .

وما كان ليزيد حلم أبيه ، أو رزانته ، أو دهاؤه السياسي .

لم يكفه أنه ورث الخلافة عن أبيه ، فكان أول وارث لها عرفه الإسلام ، ولم يشأ أن يدع «الإمام الحسين» معتكفاً في «المدينة» كما فعل «معاوية» من قبل ، وإنما أصر على أن يأخذ بيعة «الحسين» والنفر الذين امتنعوا بالحجاز ، وأبوا أن يجيبوا «معاوية» إلى بيعة «يزيد» .

كان همه الأول أن يفرغ من هؤلاء ، فكتب إلى أمير «المدينة» — الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان — غداة موت معاوية : «أن خذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا ...»

وكبر الأمر على «الوليد» فاستشار «مروان بن الحكم» فكان جوابه : «أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ...»

وجاء «الحسين» في رهط من شيعته ومواليه ، فأبقاهم بباب «الوليد» على أهبة ، ودخل إلى الأمير وعنده «مروان بن الحكم» . فدعاه الوليد إلى البيعة ، فقال :

— إن مثلي لا يعطي بيعته سراً ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية !..

قال الوليد : أجل .

قال الحسين :

— فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة ، دعوتنا مع الناس فكان أمراً

واحداً .

فصممت «الوليد» وهم «الحسين» بالانصراف ، لكن «مروان» انبعث يقول للوليد محذراً :

– والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم و بينه . أحبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه .

فوثب عند ذلك «الحسين» وهو يسأل في إنكار :

– يا ابن الزرقاء ، أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت ...

ثم خرج ... و«مروان» يقول للوليد مؤنباً :

– عصيتني؟ لا والله ، لا يمكنك من مثلها من نفسه أبداً ...

فرد عليه الوليد :

– ويخ غيري يا مروان ، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني ، والله ما أحب أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه ، من مال الدنيا و ملكها ، وأني قتلت «حسيناً» . سبحان الله ! أقتل «حسيناً» إن قال لا أبايع ؟ والله إني لأظن أن امرأ يحاسب بدم حسين ، خفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

خرج «الحسين» حتى أتى منزله فألقى إلى أهله النبأ ، وأسرَّ إليهم بعزمه على الرحيل ...

ورنت «مدينة الرسول» في الليلة التالية ، إلى ابن الزهراء يتسلل بأهله منها ، حذراً يترقب تحت جنح الظلام ، قبل أن يبزغ القمر فينم عنهم ... لم يكد يترك منهم

بالمدينة غير أخيه «محمد بن الحنفية» فإنه قال للحسين:

– يا أخي، أنت أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ. ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك. تنح بمن معك عن «يزيد بن معاوية» وعن الأمصار ما استطعت. ثم ابعث رسلك إلى الناس فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك، ولم تذهب به مروءتك وفضلك، فإني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفوا فيما بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة هدفاً، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً، أضيعها دماً وأذلها أهلاً.

قال الحسين: فأين أذهب يا أخي...

قال محمد:

– فانزل «مكة» فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت. لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ويفرق لك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها...

فودعه «الحسين» وهو يقول متأثراً:

– يا أخي قد نصحت وأشفقت. فأرجو أن يكون رأيك سديداً وموفقاً إن شاء الله.

* * *

وفي الطريق إلى «مكة» جاز أهل البيت بالمواقع التي شهدت جدهم الرسول حين

خرج من «مكة» مهاجراً منذ ستين عاماً !

ولَفَّهم الليل ، وأسدل عليهم ستراً ، وساد الصمت فلم يعد يسمع سوى وقع أخفاف الإبل تسير حثيثاً على الرمال .

ولم يكن ثمت حداء ولا غناء : وإنما هو «الحسين» يتلو هامساً قوله تعالى :

«ربِّ نجِّني من القوم الظالمين» .

فيؤمن رهطه وهم يلقون على مدينة جدهم ومغاني صباهم وشبابهم نظرة وداع ، فيرتد إليهم البصر خاشعاً دون أن يميز من معالم «المدينة» في هذا الظلام الدامس ، سوى هامات النخيل ، وأعالي الجبال ...

ولو قدر للنساء أن ينظرن إلى ما وراء ستار الغد . لملأن سمع الليل عويلاً ونو احاً ، فإن الحسين ، وآله وصحبه يخرجون الليلة من المدينة إلى غير مآب ...

* * *

ومضت ساعات والركب يجد السير ويشق الظلام ، حتى إذا أوغلوا في الصحراء وأوغل الليل ، بزغ القمر وأطل عليهم فإذا فيهم مع «الحسين» ، بنوه وإخوته ، وبنو أخيه ، وجل أهل بيته ...

وفي جانب . كانت «عقيلة بني هاشم» تسير مع جماعة النساء ، تنتظر انبثاق نور القمر . كيما يبدد الوحشة التي رانت عليها وعلى الدنيا من حولها ... !

وأجهدهم السير أياماً وليالي ذات عدد ، حتى شارفوا «مكة» فتلا «الحسين» قول ربه :

«ولما توجه تلقاء مدين، قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل».

ولم يقيموا إلا ريثما تلقوا رسل أهل «الكوفة» مبايعين إمامهم «الحسين»، وجاءته كتب القوم تترى: «أن قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا».

وبدأ أهل البيت يتهيأون للسفر من جديد...

* * *

دليل الركب

تهيأوا للسفر، لكنهم لم يشدوا الرحال قبل أن يبعثوا إلى «الكوفة» دليلاً منهم، يستوثق من الأمر هناك.

وقد اختار «الإمام الحسين» ابن عمه «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» لهذه المهمة، فخرج «مسلم» حتى أتى «المدينة» فأخذ منها دليلين، فرا به في البرية فأصابهم عطش فمات أحد الدليلين — وقيل مات الإثنان — وانقبضت لذلك نفس «مسلم» فكتب إلى «الحسين»:

«... إني أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلا الطريق واشتد بهما العطش فماتا. وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيث، وقد تطيرت، فإن رأيت أعفيتني وبعثت غيري».

وكان جواب الإمام: أن امضِ إلى «الكوفة» قدماً.

وامتثل الدليل فسار حتى بلغ «الكوفة» ونزل على رجل من شيعتهم هناك. فأقبلت الشيعة تختلف إليه، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب

« الحسين » ، فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة ، حتى بايعه من القوم اثنا عشر ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، فعجل بإيفاد رسول يحمل البشرى إلى « الحسين » المنتظر « بمكة » .

* * *

كان أمين « الكوفة » حين دخلها « مسلم » ، « النعمان بن بشير الأنصاري » وقد نقم عليه « يزيد بن معاوية » أنه ترك أمر الشيعة يفلت من يده ، وأنه نام عن « مسلم » حتى ضم بضعة عشر ألفاً إلى لواء « الحسين » .

وبادر « يزيد » فعزل « النعمان » واستبدل به « عبيد الله بن زياد » واليه على « البصرة » ، وكتب إليه أن يطلب « مسلم بن عقيل » ويقتله ، فبدأ « ابن زياد » « بهانئ بن عروة المرادي » — وكان « مسلم » قد انتقل إلى داره — فحبسه ريثما يقتله ، وشاع الأمر فصاحت نسوة مراد :

« يا عثرتاه ! يا ثكلاه ! »

فثار « مسلم » مغضباً ، ونادى بشعاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل « الكوفة » سار بهم يريد إنقاذ « هانئ » عنوة .

ثم كان موقف أهل « الكوفة » بعد ذلك عجباً : روى « الطبري » في (تاريخه) و« أبو الفرج الأصبهاني » في (مقاتل الطالبيين) أن المرأة منهم كانت تأتي ابنها فتقول : « إنصرف ، الناس يكفونك » ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول : « غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب ؟ إنصرف » .

فما زالوا يتفرقون عن « مسلم » وينصرفون حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون رجلاً ،

صلى بهم المغرب وخرج نحو أبواب «كندة» فما بلغها إلا ومعه عشرة ، ثم جاوزها فإذا ليس معه منهم إنسان!

فمضى متلززاً في أزقة «الكوفة» لا يدري أين يذهب ، حتى أتى دار امرأة عجوز ، كانت قائمة بالباب تنتظر ولدها الذي خرج مع الناس. فسلّم عليها «ابن عقيل» فردت السلام ثم سألها أن تسقيه فأخرجت إليه ماء فشرب ثم لم يبرح مكانه ، فاسترابت في أمره وسألته أن ينصرف إلى أهله ، وكررت عليه مثل هذا ثلاث مرات حتى قال لها :

— يا أمة الله ، والله ما لي في هذا المصر من أهل ، فهل لك في معروف وأجر لعلي أكافئك به بعد اليوم؟.

فسألت : يا عبد الله ، وما ذاك؟

أجاب : أنا مسلم بن عقيل ، كذبني هؤلاء القوم وخذلوني.

فأدخلته دارها وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ، وأخفت أمره إلا عن ولدها ، فما أصبح الصبح إلا وقد وشى به!

وحوصر «مسلم» فقاتل وحده مستبسلاً ، ضد ستين رجلاً مسلحاً من شرطة «ابن زياد» أو سبعين. فلما أعياهم أمره ، أخذوا يلهبون النار في القصب ويلقونها عليه ، وإذ ذاك خرج إليهم يقتحم صفوفهم مقاتلاً بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث :

«لك الأمان فلا تقتل نفسك».

فأبى إلا أن يمضي في قتالهم وهو يرتجز :

أقسمت لا أقتل إلا حرا
وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كل امرئ يوماً يلاقي شرا
أخاف أن أكذب أو أغرا

فقال له ابن الأشعث : إنك لا تكذب ولا تخدع . القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك .

وكان «مسلم» قد أثخن بالجراح ، فأسند ظهره إلى الحائط والقوم من حوله يؤكدون له الأمان .

وأتي له ببغلة فحمل عليها . وانتزعوا سلاحه ، فداخلته ريبة من أمان القوم !

* * *

وجيء به إلى «ابن زياد» فأمر به فأصعد إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه وألقيت جثته من علٍ إلى الناس ، وصلب صاحبه «هانئ بن عروة» في السوق .

ونقل «الطبري» أيضاً عمن شهد مصرع «هانئ بن عروة» بعد قتل «مسلم» إنهم أخرجوه حتى انتهوا به إلى مكان من السوق ، كان يباع فيه الغنم ، وهو مكتوف اليدين ، فجعل يقول : «وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم ! وامذحجاه وأين مني مذحج ؟ ! » .

فلما رأى أن أحداً لا ينصره ، جذب يده فنزعها من الكتاف ، ثم قال : «أما من عصا أو سكين أو حجر ، أو عظم ، يحاجش به رجل عن نفسه ؟» . قال الراوي :

«ووثبوا إليه فشدوه وثاقاً ، ثم قيل له : «أمدد عنقك» . فأبى أن يجود بها راضياً ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد بالسيف فلم يصنع سيفه شيئاً... ثم ضربه أخرى فقتله» والناس يتفرجون!

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري
إلى «هانئ» في السوق ، و«ابن عقيل»

إلى بطل قد هشم السيف وجهه
وآخر يهوي من طمار قتيــــل

ترئ جسداً قد غيّر الموت لونه
ونضح دم قد سال كل مسيل!

فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم
فكونوا بغايا أرضيت بقليل

* * *

حدث كل هذا ، وآل البيت في «مكة» يقرأون كتاب دليلهم «مسلم» بأخذ البيعة «للحسين» ، واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم إياه...

وتحرك «الحسين» يريد الخروج بأهله متعجلاً ، قبل أن تبلغه رسالة أخرى — شفوية — من الدليل الراحل.

ذلك أن «مسلم بن عقيل» لما يئس من نفسه دمعت عيناه ، فقال له قائل :

— إن من يطلب مثل الذي تطلب ، إذا نزل به مثل الذي بك ، لم يبك!

قال :

— إني والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي... ولكن أبكي لأهلي المقبلين إلي... أبكي لحسين وآل حسين.

ثم أقبل على «محمد بن الأشعث» — وهو الذي أعطاه الأمان من ابن زياد — فقال:

— يا عبد الله. إني أراك والله ستعجز عن أماني. فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يبلغ «حسيناً» خبراً على لساني، فإني لا أراه إلا وقد خرج إليكم مقبلاً، أو هو خارج غداً هو وأهل بيته، وإن ما ترى من جزعي لذلك.

أما نص الرسالة — فيما نقل المؤرخون — فهو أن يمضي الرسول فيقول «للحسين»: إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير لا يرى أن تمشي حتى تقتل. وهو يقول: «ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل. إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي».

وقد أقسم «ابن الأشعث» لمسلم أنه باعث إلى «الحسين» بالرسالة...

لكن «الحسين» لم ينتظر...

بل اكتفى بالكتاب الأول، ومضى... فما كان أصدق ما تمثل به يوم هاجر من «المدينة» من قول «ابن مفرغ»:

* والمنايا يرصدنني أن أحيدا *

* * *

محاولة وإصرار

أصبحت «مكة» ذات يوم وقد شاع فيها أن «الحسين» يوشك أن يخرج بآله منها ، يريدون العراق . فأشفق بنو هاشم على «آل البيت» من تلك الرحلة التي لا يدرون عقباها ، وانطلق منهم من انطلق ، يتوسل إلى «الحسين» ألا يخرج ، فإن كان فاعلاً فليترك أهله بمكة ، فإنه لا يدري علام يقدم !

جاءه «عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» فقال له : إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى انك مستنصحي قلتها ... وإلا كففت عما أريد» . فقال له : «قل فوالله ما أستغشك وما أظنك بشيء من الهوى» . قال له : «بلغني انك تريد العراق ، وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه» .

وأتاه «عبد الله بن عباس» فقال له :

— يا ابن عم ، قد أرجف الناس انك سائر إلى العراق فبيّن لي ما أنت صانع

قال «الحسين» :

- إني قد أجمعت العزم على المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى.

فتساءل «ابن عباس» منكراً :

- فإني أعيذك بالله من ذلك. أخبرني رحمك الله، هل تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم؟ ان كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وان كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك.

فأجاب «الحسين» في إيجاز:

- إني أستخير الله وأنظر ما يكون...

* * *

وخرج «ابن عباس» فلقيه «ابن الزبير» وكان لا يزال ممتنعاً «بمكة» لا يبايع «يزيد»، فأحس «ابن عباس» من «ابن الزبير» غبطة وابتهاجاً أن يمضي «الحسين» فيخلو الجو «لابن الزبير» ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان «الحسين» بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً بأن ذلك لا يتم إلا بعد خروج «الحسين»...

فلما كان المساء عاد «ابن عباس» إلى «الحسين» فقال له في إلحاح وتوسل :

- يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر! إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك

والاستئصال ! إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ! أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم .

لكن «الحسين» لم يرجع عن عزمه ، وإذ ذاك توسل اليه «ابن عباس» :

– فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل «عثمان» ونساؤه وولده ينظرون اليه .

وأبى «الحسين» إلا إصراراً...

فلم يبق «لابن عباس» إلا أن يقول محتداً :

– لقد أقررت عين «ابن الزبير» بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك ، والله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم انك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس ، أطعتني ، لفعلت ذلك .

ثم خرج ، فمر بعبد الله بن الزبير فقال له : «قرت عينك يا ابن الزبير» :

يا لك من قنبرة بمعمر

خلا لك الجو، فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا الحسين خارجاً فاستبشري

ودنا موعد خروج «الحسين» والقوم ينظرون اليه في جزع وإشفاق ، ثم كانت المحاولة الأخيرة لرده عن السفر.

وكان صاحب هذه المحاولة «عبد الله بن جعفر» زوج السيدة «زينب» التي أجمعت أمرها على أن ترحل هي وأولادها ، مع أخيها الإمام ، مهما تكن العواقب ...

وهنا نلحظ – للمرة الأولى – ان «عبد الله» يقيم بعيداً عن «الحسين» ، ويلفتنا أنه لما أراد صرف ابن عمه عن الهجرة لم يذهب اليه بنفسه كما فعل «ابن عباس» وإنما آثر أن يبدأ فيبعث اليه كتاباً مع ولديه محمد وعون.

هل كان «عبد الله بن جعفر» مريضاً لا يقوى على الذهاب إلى «الحسين»؟

كلا ، فإن نص كتابه كما حفظته لنا كتب التاريخ ، ينفي أن يكون به مرض ، وهذا هو الكتاب ، نقلاً عن «الطبري وابن الأثير» :

«أما بعد ، فإني أسألك بالله ألا انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإني في أثر الكتاب والسلام» .

فهل كان «عبد الله» يجد في نفسه شيئاً من «الحسين»؟

كلا ، فإنه كما نقرأ في كتابه ، يرى الحسين «نور الأرض وعلم المهتدين ورجاء المؤمنين» .

ففيم احتجاجه إذن وإيثاره أن يكتب إلى «الحسين» بدلاً من المبادرة بالذهاب اليه؟

لعل الأمر أبسط من أن نقف عنده ، فغير بعيد أن يكون «عبد الله» مشغولاً

ببعض شأنه ، فكتب معجلاً على أن يمضي في أثر كتابه ، وغير بعيد أن يكون قد آثر أن يبدأ محاولته مع الأمير قبل أن يذهب إلى «الحسين» .

ولقد قام فعلاً في أثر الكتاب ، لكنه لم يمض إلى «الحسين» من فوره ، وإنما مضى إلى «عمرو بن سعيد» أمير «مكة» من قبل «يزيد» .

وجلسا يتدبران الأمر ، فكان رأي «ابن جعفر» أن يكتب الأمير إلى «الحسين» كتاباً يؤمنه ، ويمنيه البر والصلة ، ويسأله الرجوع عما اعتزمه من الرحيل ... فقال «عمرو» ملبياً :

— اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه .

فكتب «عبد الله بن جعفر» ما شاء على لسان الأمير ، وسأله أن يبعث به — بعد أن يختمه — مع أخيه «يحيى» بن سعيد» (فإنه أحرى أن تطمئن نفسه اليه ويعلم أنه الجد منك) .

ففعل الأمير ، ومضى «يحيى» في صحبة «عبد الله بن جعفر» إلى «الحسين» بالكتاب المختوم .

ورد «الحسين» رداً جميلاً ، لكنه مضى في طريقه لا يلوي على شيء ، فزار قبر جده مودعاً وهو يقول : «وقد غسلت يدي من الحياة ، وعزمت على تنفيذ أمر الله» .

* * *

ولن نستطيع أن نمضي معه ، دون وقفة هنا بما كان بين «عبد الله بن جعفر» وزوجته «السيدة زينب» .

ذلك اننا لن نراهما معاً منذ اليوم...

وقد شغلتنا تلك الأحداث الصاخبة عن عقيلتنا ، فاندفعنا نرقب تلك الغيوم التي خيمت على بيتها والفواجع التي ألمت به ، بحيث يعذر من يظن أننا نسينا «زينب».

ونشهد اننا لم ننسها ، وإنما شغلنا بالذي كان يشغلها.

والآن نقترب منها ، فنراها في صحبة أخيها دون زوجها.

وسنظل حتى آخر يوم من حياة «زينب» نراها هكذا ، وقد استبدلت بمكانها في بيت «عبد الله بن جعفر» مكاناً لها آخر ، في بيت «الحسين بن علي».

سنراها تمضي في صحبة أخيها ، ويبقى الزوج بالحجاز.

وحتى بعد مقتل «الحسين» لا تعود «زينب» إلى موضعها بجانب الزوج ، وإنما تقيم بالمدينة فترة قصيرة ترحل بعدها إلى «مصر» فتدفن في ثرى أرضها الطيبة – على أرجح الأقوال – في شهر رجب عام ٦٢ هـ.

وبقي «عبد الله بن جعفر» بالحجاز ، ما نعلم أنه غادره حتى مات بمكة عام ٨٠ ، وهو المعروف بعام الجحاف ، إذ دهم «مكة» سيل جحف الحاج وذهب بالإبل.

* * *

ونسأل كتب التاريخ والتراجم ، هل كان شيء بين الزوجين؟ فتصمت هذه وتلك ، لا تحير كلتاهما جواباً.

ونريد لننصرف عن مثل هذا فلا نرى الانصراف سهلاً ولا ميسوراً ، لقد كان

يمكن أن نكتفي بصحبة «زينب» في رحلتها ، لو أنا لم نلتفت إلى ذلك الفراق بينها وبين زوجها . أما وقد انتبهنا ، فسنظل نرقب في كل موقف ، تباعد ما بين «زينب» وابن عمها .

سنظل نراها — حتى آخر يوم من حياتها — في صحبة آلها ، لا تفارقهم أبداً ، ولا تشغل عنهم بزوج أو ولد .

ويلاحقني السؤال في كل آن : أي شيء كان بين الزوجين؟

ثم أعثر أخيراً على خبر — حيث قدرت ألا يكون — في ترجمة لزينب أخرى ، غير عقيلة بني هاشم !

ففي الوقت الذي أمسكتْ فيه كتب التاريخ والتراجم عن التعرض لما بين الزوجين ، أقرأ في كتاب «السيدة زينب وأخبار الزينبات للعبيدلي النسابة) كلمة عابرة سيقت عرضاً ، أثناء الحديث عن «زينب — الوسطى — بنت علي أبي طالب» وهي المعروفة بأم كلثوم ، والتي تزوجها «عمر بن الخطاب» صبية صغيرة :

«ولما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، تزوجت بعده محمد بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها ، فتزوجها عبدالله بن جعفر ، وكان زواجه بها بعد طلاقه لأختها زينب الكبرى ، فماتت عنده» .

وأمسك بطرف هذا الخيط ، وأعود فأراجع ترجمة «عبد الله بن جعفر» حيثما ظفرت بها ، فلا أرى من المؤرخين أو المترجمين من أشار إلى طلاقه «لزينب العقيلة» وزواجه من أختها «أم كلثوم» .

فمتى طلقت «زينب» إذا صح الخبر؟

لا نملك أن نقطع في هذا بيقين ، وإنما نرجح أن الطلاق كان بعد وفاة «الإمام علي» وقبل رحيل «الحسين» عن الحجاز.

ذلك لأن «أم كلثوم» ظلت عند «محمد بن جعفر» حتى آخر حياته ، وقد رأينا محمداً يشهد «صفين» ، ويقاتل بالجموح ، تحت راية أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» ، و«أم كلثوم» قد توفيت عند «عبد الله بن جعفر» فيما يقول الخبر - «بغوطة دمشق ، عقب محنة أخيها الحسين» .

فهي إذن قد كانت عند «عبد الله بن جعفر» حتى توفيت عقب «محنة الحسين» .

وإذن تكون «زينب العقيلة» قد طلقت قبل هذا ، وسافرت مع أخيها بعد أن حل عقد الزواج .

* * *

ذاك أقصى ما استطعت الآن أن أصل اليه في محاولتي جلاء هذه النقطة الدقيقة الغامضة من حياة «زينب» الزوجية .

ولن أسأل المؤرخين بعد هذا عن أسباب الطلاق ، وإنما أنصرف إلى «زينب» فأراها متفانية في حب أخيها وبني أخيها .

وأرى «عبد الله بن جعفر» - في الوقت نفسه - يؤيد «الحسين» بقلبه ، وإن تخلف عن الرحيل معه إلى الكوفة .

ولقد ظل يوقره أبداً ، ويجاهد ليمنعه مما يخاف عليه منه ، فلما صمم «الحسين» على رحلة الموت بعث عبد الله ببنيه مع الإمام ، وإنه ليعلم أن الرحلة قد تودي بهم

جميعاً ...

وكان قلبه مع «الحسين» ، وسوف نراه بعد مصرعه يجلس ليتلقى العزاء فيه ، وكل سلواه أن ولديه «محمداً وعوناً» قد استشهدا معه كما روى «الطبري» في (تاريخه). وفي رواية ، أن الذين استشهدوا من أبناء «عبد الله» مع «الحسين» ثلاثة : محمد ، وعون ، وعبيد الله ...

* * *

نحو وادي الموت

فصل الركب من «مكة» في طريقه إلى «الكوفة» في أمسية شاحبة راكدة الهواء، ووجمت الجبال المشرفة على البلد الحرام حين رأت «آل محمد» يخرجون منها إلى غير رجعة.

وقد اعترضهم في أول الطريق رسل «عمرو بن سعيد بن العاص: أمير الحجاز» وحاولوا أن يردوهم إلى مكة، وتضارب الفريقان بالسياط. ثم تخلى الرسل، واستأنف الركب المسير.

وكان سراهم حثيثاً في بادئ الأمر، وقد هون عليهم مشقة المسرى أن هناك بالعراق بضعة عشر ألفاً ينتظرون مقدم ابن بنت النبي، كما انتظر الأنصار منذ ستين عاماً، مقدم جدهم المهاجر، محمد ﷺ وآله.

وتلفّتت «زينب» – وكانت على رأس النساء – وراءها مرة ومرتين، ترنو إلى الربوع الغالية المقدسة، وفي قلبها شجن!

لقد هاجرت إلى «العراق» من قبل، يوم كان لها أب، ملء الدنيا، واليوم هذه

هي تسير إلى العراق مرة أخرى، مثقلة بمتاعب أعوام زادت عن العشرين، ثكلت فيها أباها، وأخاها الحسن، وثكلت معهما المرح، ثم الشباب!..

وتترنح الدموع في مقلتي «زينب» وهي تلقي نظرة ملؤها الرحمة والحب والحزن على الركب الذي يغذ السير: هؤلاء هم كل آلها: أخوها، وبنوها، وبنو أخويها، وبنو عمها... هؤلاء هم آل الرسول، وزهرة بني هاشم، وزينة قريش. يهجرون ديارهم إلى مصير مجهول، لكنه محتوم!

ترى ما ذاك المصير؟

لم تنتظر «زينب» طويلاً لتعلم...

فإن الركب لم يكد يقطع مرحلتين من الطريق أو ثلاثاً، حتى لقيه أعرابيان من بني أسد، فبدا «للحسين» أن يسألها عما تركاه وراءهما بالكوفة، وفي حسابه أن يصفا له حشداً مهيئاً لاستقباله، معيداً ذكرى مشهد استقبال الرسول المهاجر إلى «المدينة» وفتيات بني النجار يهتفن من أعماق قلوبهن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع!

ولكن ما أسرع ما تبدد الحلم وتلاشى الصدى!

قال الأعرابيان:

— يرحمك الله، ان عندنا خبراً، فإن شئت حدثنا علانية، وإن شئت سراً.

فنظر «الحسين» إلى أصحابه وقال :

-- ما دون هؤلاء سر !

قالا :

– يا ابن رسول الله ، إن قلوب الناس معك ، وسيوفهم عليك ، فارجع ...

ثم أخبره بقتل ابن عمه «مسلم بن عقيل» وصاحبه «هانئ بن عروة» ، فساد القوم وجوم حزين لم يطل... ثم أعولت النساء وضجّ الجمع بالبكاء.

وكانت مناحة في العراء...

وحين خفت ضجة النواح ، أراد «الحسين» أن يرجع بآله فوثب عند ذلك «بنو عقيل» وهم يصيحون :

– لا نرجع والله أبداً حتى ندرك ثأرنا . أو نذوق ما ذاق أخونا ونقتل بأجمعنا !

فنظر «الحسين» إلى الأعرابيين اللذين نصحا له بالرجوع ، وقال في جد وأسى :

– لا خير في العيش بعد هؤلاء...

وأمن القدر على ما قاله «بنو عقيل» !

لم يرجعوا ، بل قتلوا أجمعين...

* * *

ولم يعجل الركب بالسفر هذه المرة :

انتظروا نهارهم كله ، وأكثر ليلهم ، حتى إذا كان السحر أمر «الحسين» فتيانه

وغلمانه أن يكثروا من الماء، فاستقوا وأكثروا.

ثم هموا يستأنفون المسير...

وكان الشطر الباقي من الرحلة قصيراً:

لم يعد ثمت شك في المصير الرهيب الذي ينتظر الركب وشيكاً، وأبي «الحسين» إلا أن يكشف لمن لحق به من الأعراب عن جلية الأمر، فلعلهم ما تبعوه إلا لظنهم أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله.

قال:

«... أما بعد فقد أتانا خبر فظيع: قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة... وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام».

فتفرق عنه الأعراب يميناً وشمالاً، حتى بقي في أهله وأصحابه الذين جاءوا معه من الحجاز.

وتحركت القافلة من جديد: واجمة مسيرة، كأنما تدفعها نحو حتفها قوة لا تقاوم ولا تدفع.

وتوالت النذر...

فما انتصف عليهم النهار وهم يسيرون في الفلاة، حتى أتاهم من ينعي اليهم «عبد الله بن بقطر: أخا الحسين من الرضاعة ويأتيهم بخبره»، وكان الإمام قد سيره إلى ابن عمه «مسلم بن عقيل» قبل أن يعلم بمقتله، فسيق «ابن بقطر» إلى عبيد الله بن زياد». فأمره أن يصعد فوق القصر ويلعن «الحسين» ثم ينزل حتى يرى فيه رأيه.

وصعد «عبد الله بن بقطر» فأعلم الناس بقدوم «الحسين» ولعن «ابن زياد وأباه» فألقاه ابن زياد من أعلى القصر فتكسرت عظامه وبقي به رمق، حتى جاء من ذبحه ليريحه.

لم يبك الراحلون هذه المرة، كما بكوا عندما نعي اليهم «مسلم»، بل أصغوا إلى النبأ حيارى مطرقين، ثم مضوا في طريقهم لا ينثنون.

ولاح لهم على البعد ما ظنه أحدهم نخلاً، فكبروا، يمنون أنفسهم براحة قصيرة، قبل المعركة المرتقبة.

سأل «الحسين» أصحابه:

– ما هذا التكبير؟

أجابوا:

– رأينا النخيل...

فارتفع صوت آخرين، ممن لهم بالطريق معرفة سابقة:

– ما بهذا الموضع والله نخل، ولا نحسبكم ترون إلا هوادي الخيل وأطراف

ففكر «الحسين» لحظة ثم قال:

– وأنا والله أرى ذلك...

وعاد الصمت الثقيل يلف الراحلين، فما عادت الصحراء تسمع سوى تنهدات النساء ورغاء الإبل...

وبدا كأن شبح الموت يجثم على هذه الكتلة البشرية الحزينة ، السائرة في بطء – ولكن في عزم وتصميم – نحو نهايتها المفجعة ، كأنما ترصدها المنايا أن تحيدا...

وكان حر الظهيرة مرهقاً ، فمال «الحسين» بأصحابه إلى جبل (ذي جشم) فأناخوا رواحلهم...

وأطبق على الجو غيم كثيف ، تكشف عن «الحر بن يزيد» في ألف فارس من عسكر «عبيد الله بن زياد : أمير الكوفة» جاء يبلغ الحسين رسالة الطاغية :

– إني أمرت أن انطلق بك إلى ابن زياد ، أو أجعجع بك فلا أتركك تزول من مكانك .

قال الحسين :

– إذن أقاتلك ، فاحذر أن تشقى بقتلي : ثكلتك أمك !

فكظم «الحر» غضبه وأجاب :

– أما والله لو غيرك من العرب يقولها ، ما تركت ذكر أمه بالثكل ان أقوله كائناً من كان ، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بخير الذكر...

وتحرك «الحسين» يريد السير ، فتصدى له «الحر» يسايره ويمنعه من التحرك ، فسأله «الحسين» عما يريد به ، قال :

– إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك «الكوفة» ولا تردك إلى «المدينة» حتى أكتب إلى ابن زياد ، وتكتب أنت إلى «يزيد» إن أردت ، فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن

أبتلي بشيء من أمرك.

فتياسر «الحسين» عن طريق «القادسية» ونثر ما معه من كتب أهل «الكوفة»، ثم نظر إلى هؤلاء الذين جاءوا في جيش «ابن زياد» وقال:

— ... وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم... ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام.

فقال له «الحر»:

— إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن!

فقال له «الحسين»:

— أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما!

فلما سمع «الحر» قوله أطرق خاشعاً متأثراً يدعو الله أن يعفيه من قتال «الحسين».

وكان قد بعث إلى «ابن زياد» يسأله: هل يأذن «للحسين» وآله في الرجوع من حيث جاءوا؟ وإنه ليرجو أن يجيب بنعم!

* * *

وشاع بنأ قدوم «الحسين» بين أهل «الكوفة» فأقبل من أهلها أربعة نفر — أربعة

فحسب ! — يريدون أن يكونوا معه ، فتصدى لهم «الحر» يمنعهم ، ثم كف عنهم لما قال له «الحسين» :

— لأمنعهم مما أمنع منه نفسي !

وأقبل «الحسين» عليهم يسألهم أن يخبروه خبر الناس خلفهم ، فقال قائلهم :

— أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ! وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ثم حدثوه عما لقي رسوله إلى الكوفة ، فلم يملك دمعته ، وقرأ :

«فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً» اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك .

ثم أطرق صامتاً ...

وباتوا جميعاً ينتظرون .

* * *

فلما كان الصبح وصلى «الحسين» الغداة ، تحرك ثم أخذ يتياسر بأصحابه و«الحر ابن يزيد» يردهم إلى «الكوفة» رداً شديداً ، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى «نينوى» فإذا راكب مقبل من «الكوفة» يحمل إلى «الحر» أمر «ابن زياد» :

«أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، فلا تنزله إلا بالعراء ، في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك

أمري والسلام».

وحيل بينهم وبين الماء، فباتوا على ظمأ...

وفي الصبح لاحت لهم طلائع جيش «الكوفة»: أربعة آلاف مقاتل، يقودهم «عمر بن سعد بن أبي وقاص» فلما شارفوا مكان «الحسين» بعث «عمر» اليه رسولاً يسأله: ما الذي جاء به؟

أجاب «الحسين»:

-كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم، فأما إذ كرهوني فإني انصرف عنهم.

فكتب «عمر» إلى «ابن زياد» يعرفه ذلك، فلما قرأ «ابن زياد» الكتاب قال:

ألآن إذ علقت مخالبنـــــا بـــــه يرجو النجاة، ولات حين مناص!

ثم كتب إلى «عمر» يأمره أن يعرض على «الحسين» (بيعة يزيد. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا) وان يمنعه الماء ومن معه. فأرسل «عمر» خمسمائة فارس نزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وصحبه وبين الماء.

فلما اشتد عليهم العطش. أمر «الحسين» أخاه «العباس بن علي» فسار في عشرين راجلاً وثلاثين فارساً – هم ثلثا صحبه تقريباً – فدنوا من الماء وقاتلوا عليه حتى ملأوا القرب وعادوا...

* * *

وبدا ان الموقف يزداد دقة وحرجاً، فبعث «الحسين» رسوله إلى القوم، يسألهم

أن يختاروا له واحدة من ثلاث :

– أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء.

– أو يمضوا به الى «يزيد بن معاوية».

– أو يسيروا به الى أي ثغر من ثغور المسلمين ، فيكون رجلاً من أهله ، له ما لهم وعليه ما عليهم.

فبعث «عمر» بالرسالة» إلى «ابن زياد» ومضى الوقت ثقيلاً مرهقاً في انتظار جواب الأمير.

ثم وصل إلى «عمر» الجواب المنتظر مع «شمر بن ذي الجوشن» :

«أما بعد فإني لم أبعثك الى حسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندي شافعاً.

«انظر ، فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إلي سلما ، وان أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره ، فإنه عاق شاق ، قاطع ظلوم... فإن أنت قضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخلٍّ بين شمر وبين العسكر والسلام».

* * *

بطلة كربلاء

ونادى «عمر بن سعد» في جيشه ، ثم زحف نحو «الحسين» قبل الغروب ، و«الحسين» جالس حينذاك أمام خيمته ، محتبياً بسيفه ، وقد أخذته إغفاءة قصيرة من أثر الإجهاد ، وأخته «زينب» الى جانبه ترعاه يقظى لا تنام.

وسمعت «زينب» ضجة الجيش الزاحف عن كثب ، فدنت في رفق من أخيها فقالت :

– يا أخي ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟..

فرفع «الحسين» رأسه فقال :

– إني رأيت رسول الله ﷺ وآله في المنام ، فقال لي : إنك تروح إلينا...

فلطمت الأخت وجهها وصاحت :

– يا ويلتاه...

فقال لها الحسين :

– ليس لك الويل يا أخية! اسكني يرحمك الله.

واتجه إلى أخيه «العباس» فطلب اليه أن يمضي فيستطلع خبر الزاحفين، فلما عرف انه القتال، بعث ثانية يسألهم أن ينصرفوا هذه العشية «لعلنا نصلّي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فإذا أصبحنا التقينا إذا شاء الله، فإما التسليم وإما القتال».

واستشار «عمر» أصحابه في أمر التأجيل، فقال منهم قائل:

– سبحان الله، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم اليها.

وأجلوا إلى غد...

* * *

وانثنى «الحسين» إلى أصحابه، فقال بعد أن أحسن الثناء على ربه:

«أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً...

«ألا واني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً – أي مركباً – وليأخذ كل رجل منكم برجل من أهل بيتي، ثم تفرّقوا في البلاد حتى يفرج الله، فإن القوم يطلبونني، ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري».

فهتفوا جميعاً:

«معاذ الله والشهر الحرام! فماذا نقول للناس إذا رجعنا اليهم؟ أنا تركنا سيدنا

وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل وذريعة للرماح وجزراً للسباع ، وفرزنا عنه رغبة في الحياة؟ معاذ الله ، بل نحيا بحياتك ونموت معك».

ثم سأله سائلهم :

«أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».

فبكى الإمام تأثراً ، وبكوا عليه !

وجاوبتهم دموع أخرى من الخيام ، حيث السيدة «زينب» ومن معها من نساء البيت الكريم ، يصغين في هم وقلق.

ثم أوى الجمع إلى المضاجع ...

وأطبق على «كربلاء» صمت ثقيل مرهق ، مزقته صيحة تنبعث من فسطاط «الحسين» وإذا امرأة تصرخ من أعماق قلب متصدع :

«واثكلاه ! واحزناه ! ليت الموت أعدمني الحياة ! يا حسيناه ! يا سيداه ! يا بقية أهل بيتاه ! استقتلت ويئست من الحياة؟ اليوم مات رسول الله ، وأمي فاطمة الزهراء ، وأبي علي ، وأخي الحسن ! يا بقية الماضين وثمال الباقين...»

إنها «زينب» لا سواها ! زينب ، عقيلة بني هاشم !

وندع «علي بن الحسين» ذاك الذي أنقذته عمته «زينب» من المذبحة — يصف لنا ذلك المشهد فيقول :

«إني والله لجالس في تلك العشية التي قتل أبي صبيحتها، وعمتي «زينب» تمرضني، إذ اعتزل أبي أصحابه في خباء له وعنده «مولى أبي ذر الغفاري» يعالج سيفه ويصلحه، وأبي يقول:

يا دهر أف لك من خليل!
كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليـــــل
وكل حي، سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها فعرفت ما أراد، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي... فأما عمتي «زينب» فإنها سمعت ما سمعت... فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس حتى انتهت اليه فصاحت: «واثكلاه... ليت الموت أعدمني الحياة». الخ.

فنظر اليها «الحسين» عليه السلام ملياً ثم قال لها:

- يا أخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان.

قالت:

- بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله، نفسي فداك!

فرد غصته وترقرقت عيناه وتمتم:

- لو ترك القطا ليلاً لنام...

قالت :

- يا ويلتا ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً؟ فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي !

ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها فشقته ، وخرجت مغشياً عليها ، فقام اليها «الحسين» فصب على وجهها الماء وقال لها :

- يا أخية ، اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه. أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة.

فلما أفاقت من غشيتها ، قال لها :

- يا أخية ، إني أقسم عليك فأبري قسمي : لا تشق عليَّ جيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت.

قال «علي بن الحسين» : ثم جاء بها حتى أجلسها عندي ، وخرج إلى أصحابه... »

ولو علمت «زينب» ماذا كان ينتظرها وقومها غداة تلك العشية ، لادخرت دموعها إلى غد !

* * *

وكانت ليلة ليلاء... أمضاها أكثرهم مسهدين يحدقون في شبح الموت الذي كان جاثماً لهم بالوصيد ، يتربّص بهم مطلع النهار.

وراحت «زينب» ترسل عينيها في جمود شارد إلى الظلام المخيم على الصحراء ،

فإذا ارتد اليها وعيها قامت فطافت بمضاجع بنيها واخوتها ، تتزود لفراق طويل.

* * *

وتنفس الصبح ، وتلاقى الجيشان !

ولكن أي جيشين؟ !

«عمر بن سعد» في أربعة آلاف من جيش أمير الكوفة ، كامل العدة شاكي السلاح...

ومن ورائهم الدولة والسلطان.

و«الحسين» في اثنين وثلاثين فارساً ، واربعين رجلاً من أهله وصحبه !

ومن ورائهم ، الصبية والنساء !

أخذ «الحسين» يرقب هاتيك الآلاف وهي تزحف نحو أصحابه السبعين ، فلما دنوا منه دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته : أن اسمعوا قولي ولا تعجلوني ثم اقضوا إلي ولا تنظرون. «إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين».

وتناهى صوته إلى زوجاته واخواته وبناته ، فصحن وبكين ، وارتفعت أصواتهن حتى بلغته ، فأرسل إليهن ابنه علياً وأخاه العباس وقال لهما : «اسكتاهن ، فلعمري ليكثرن بكاءهن».

وذكر إذ ذاك ابن عمه «عبد الله بن عباس» ، وخيل إليه أنه يسمع صدى صوته آتيا من بعيد ، يلح عليه ألا يخرج عن الحجاز إلى الكوفة : «فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده

ينظرون اليه».

ولم ينقطع الصدى حتى سكتت الصائحات الباكيات.

فلما سكتن، عاد فالتفت إلى جيش الكوفة، وقال بعد أن حمد الله:

«أما بعد. فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا، هل يصلح ويحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيه وابن عمه وأولى المؤمنين بالله؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله ﷺ وآله قال لي ولأخي: أنتما سيدا شباب أهل الجنة وقرة عين أهل السنّة؟ أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟»

فلما لم يلق القوم اليه سماعهم قال:

«فإن كنتم في شك مما أقول، أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري».

فلم يجبه منهم مجيب.

واستطرد يسأل:

«أتطلبون بقتيل منكم قتلته، أو بمال استهلكته، أو بقصاص من جراحة»؟

فسكتوا لا يحيرون جواباً...

هنالك راح «الحسين» يتفرس في رؤوس جيش الكوفة وينادي: يا فلان... ويا فلان... ويا فلان... ألم تكتبوا إلي: أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت

الجام وإنما تقدم على جند لك بجند فأقبل؟..

فتمزقت كلماته بدداً، لم يكد يصغي اليها من القوم سوى «الحر بن يزيد» فإنه قام إلى قائده «عمر بن سعد» يسأله:

– أصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟

أجابه «عمر»:

– أي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس ولا تطيح الأيدي.

قال «الحر»:

– أفما لكم في واحدة من الخصال الثلاث التي عرض عليكم رضى؟

قال «عمر»:

– والله لو كان الأمر إلي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك.

فلم يزد «الحر».

وانثنى يدنو نحو «الحسين» قليلاً قليلاً وقد أخذته رعدة، ولمحه رجل من قومه فقال:

– والله إن أمرك لمريب! والله ما رأيت منك في موقف قط مثل ما أراه الآن، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك!

فقال له «الحر»:

– إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت

وحرقت !

ثم ضرب فرسه فلحق «بالحسين» وقال له :

«جعلني الله فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان ، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً ... ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك الذي سألتهم ، ما ركبتها منك . وإني قد جئتك تائباً إلى ربي مما كان مني ، مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك» .

ثم التفت إلى معسكر أصحابه فقال :

«يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ! أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ؟ وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، وأحطتم به ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً ! ومنعتموه ومن معه من ماء «الفرات» الجاري الذي يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهو وأهله قد صرعهم العطش ! ! بئس ما خلفتم محمداً في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا ..» .

فكان جوابهم أن رموه بالنبل ، ورجع هو حتى وقف أمام «الحسين» فناضل عنه حتى استشهد ...

دارت المعركة بين الآلاف والعشرات !

وجعل أصحاب «الحسين» يتقدمون رجلاً بعد رجل ، (فقاتلوهم حتى انتصف النهار ، أشد قتال خلقه الله) .

وقام – رضي الله عنه – فصلّى بمن بقي معه صلاة الخوف ظهراً ، وعادوا إلى القتال ، ثم لما علموا أنهم لا يقدرون أن يمنعوا إمامهم ، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه ، حتى فنوا جميعاً ولم يبق غير أهل بيته ، فتقدموا مستبسلين.

وكان أول قتيل منهم ، «علي الأكبر بن الحسين» أخذ يشد على الناس وهو يرتجز :

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن ، وبيت الله ، أولى بالنبي

... ...

أضربكم بالسيف حتى يلتوي
ضرب غلام هاشمي علوي
ولا أزال اليوم أحمي عن أبي
تالله لا يحكم فينا «ابن الدعي» !

وكان يكر على الكوفيين ، ثم يرجع إلى أبيه يقول :

– يا أباه ، العطش !

فيقول له «الحسين» :

– اصبر بني ، فإنك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله ﷺ وآله بكأسه !

فعاد الشاب يشد على العسكر ، وظل يكر الكرة بعد الكرة حتى رمي بسهم فوقع في حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلب في دمه ، فتلقاه أبوه وهو يقول بصوت ثاكل :

- قتل الله قوماً قتلوك يا بني ! ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله ! على الدنيا بعدك العفاء...

قالوا: ولم يكد يتم عبارته حتى اندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة، تنادي في جزع:

(يا حبيباه! يا ابن أخاه...)

فسأل عنها من لا يعرفها، فقيل: هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله.

اندفعت «زينب» حتى انكبت على الفتى الشهيد، فجاءها «الحسين» فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط، ثم عاد إلى ولده وقد أقبل فتيانه إليه، فقال مفجوعاً:

- احملوا أخاكم.

فحملوه من مصرعه...

* * *

وأحاط القوم «بالحسين» فأقبل «القاسم بن الحسن بن علي» - وهو يومئذ غلام - يجري نحو عمه، فجرت «زينب» إليه تريد أن تمنعه، لكن الغلام أفلت منها حين رأى مجرماً يهوي بالسيف إلى «الحسين» ومد «القاسم» يده ليتقي ضربة السيف وهو يصيح بالمجرم:

«يا ابن الخبيثة أتقتل عمي»؟

فقطع السيف يده، وبقيت معلقة بخيط من الجلد.

صرخ الغلام الشهيد وهو يفحص برجليه :

- يا أماه !

فأجابته «زينب» من بعيد :

«لبيك يا فتاي» !

وهرعت إليه ، فإذا «الحسين» واقف عند رأسه يقول :

«عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته».

ثم احتمله حتى ألقاه مع ابنه علي ، بين عيني «زينب».

وأخذت «زينب» تتلقى هذا المحتضر من آلها أو ذاك ، فلا يكاد يلفظ النفس الأخير حتى تحتضن أشلاء آخر.

وكان فيمن حمل إليها ، ولدها عون بن عبد الله ، وأخواه محمد وعبد الله ، وإخوتها : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد ، وأبو بكر ، وابنا أخيها الحسين : علي ، وعبد الله ، وابنا أخيها الحسن : أبو بكر والقاسم ، وبنو عمها عقيل : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله و... و... !

والرحى دائرة في جنون ، لا تريد أن تكف وعلى أرض كربلاء من «بني طالب» حي يتنفس !

وحين قاربت المعركة نهايتها ، اندفع عشرة رجال من جيش «ابن زياد» إلى فسطاط «الحسين» الذي فيه عياله ومتاعه لينهبوه ، فردتهم صيحة الإمام الذي كان يقاتل وحده :

«ويلكم! إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في الدنيا، فرحلي لكم عن ساعة مباح»!

* * *

وأبيح الرحل بعد ساعة...

ويا لها من ساعة رهيبة، جعل «الحسين» يقاتل فيها وحده بعد أن قتل عنه ولده وأهل بيته وأصحابه، فلم يبق منهم أحد...

قال من رآه يقاتل الجمع رابط الجأش: «فوالله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة، وكأني أنظر إلى قرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهي تقول:

«ليت السماء انطبقت على الأرض».

فلما دنا «عمر بن سعد» من «حسين» قالت: «يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر»؟ فكأني أنظر إلى دموع «عمر» وهي تسيل على خديه ولحيته، ثم أشاح بوجهه عنها...

أجل «زينب» حتى اللحظة الأخيرة، وفي كل لحظة...

«زينب» دون سواها من الزوجات والأمهات والأخوات اللواتي شهدن «كربلاء»!

* * *

وبقي «الحسين» وحده، (فما رؤي مكسور قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً منه ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً).

ووقفت أخته «زينب» غير بعيد تملأ عينيها منه قبل أن يمضي، حتى إذا أثخنته الجراح وأوشك أن يهوي، خانها جلدها فلم تعد تقوى على النظر إليه، فأغمضت عينيها وأصغت بملء جوارحها إلى صيحته الأخيرة في الألوف المجتمعة عليه:

«أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

فكأنما زلزل الأرض تحت أقدام المنتصرين.

ومكث – رحمه الله – طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه، لكنهم مضوا عنه واحداً في أثر واحد، لا يكاد يهم به الرجل منهم حتى يضعف ويرعد.

* * *

ثم قضى الله امره، وكانت النهاية المحتومة!

قتل «الحسين»، وكان بجثته حين قتل، ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة.

ضربت كتفه اليسرى بالسيف فقطعت...

وأجهزت ضربة أخرى على الشهيد...

وتقدم ثالث فاحتز رأسه!

وكفت الرحى المجنونة بعد أن لم يبق من آل البيت من تطحنه!

وردت السيوف إلى أغمادها حين لم يعد هناك من تذبحه.

وتركت جثث الشهداء بالعراء...

«ومال الناس على الحلل والإبل فانتهبوها، ومالوا على نساء «الحسين» وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها» كما في عبارة الطبري...

وجعلت الخيل تطأ جثث الشهداء!

* * *

وغربت شمس العاشر من المحرم سنة إحدى وستين، وأرض «كربلاء» غارقة في الدماء، قد تبعثرت فيها أكرم الأشلاء، ولاح القمر من وراء الغيوم خابي الضوء شاحبة.

وعلى ذلك الضوء الشاحب بدت «زينب» في نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل، عاكفات على تلك الأشلاء، يلتمسن فيها ذراع ولد حبيب، أو كتف زوج عزيز أو قدم أخ غال.

وغير بعيد منهن، كان عسكر «ابن زياد» يسمرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب.

وسمعت أصوات من هناك، تقول للذي احتز رأس الإمام الشهيد:

«قتلت الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله. قتلت أعظم

العرب خطراً... أراد أن يزيل ملك هؤلاء فأت أمراءك واطلب جزاءك منهم فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً».

فكان جوابه أن وقف بباب فسطاط «عمر بن سعد» ثم نادى بأعلى صوته :

أوقر ركابي فضة وذهبا
إني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا
وخيرهم ، إذ ينسبون ، نسبا

* * *

وقيل انتهت القصة...

قصة ثلاثة وسبعين شهيداً ثبتوا ساعات ذات عدد أمام أربعة آلاف.

حتى قتلوا عن آخرهم !

وسيمر حين قبل أن تكون لهم قبور تجمع ما تناثر من أشلائهم ، ويقف بها الرائي منشداً :

وقفت على أجـــداثهم ومجالهم فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعاً إلى الهيجا ، حماة خضارمه
تــأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بــأسيـافهم آساد غيل ضراغمه
وما أن رأى الراءون أفضل منهم لــدى الموت سادات وزهراً قماقمه

ولم يبق من أشخاص القصة الذين ظهروا على المسرح الدامي سوى «زينب».

«زينب» التي لم تكد تغيب عنا لحظة طول المشهد الفاجع ، والتي ذهبت وحدها في التاريخ بالدور الخالد : «بطلة كربلاء» هي التي سمعت الصيحة الأولى ، وكانت إلى جانب أخيها وقد أغفى ، وهي يقظى لا تنام!

وكانت إلى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيد تبكيه.

وهي التي رؤيت إلى جانب «الحسين» – رضي الله عنه – منذ بدأ القتال حتى انتهى...

* * *

المبحث الرابع

بعد المأساة

- موكب الأسرى
- أوبة الركب
- الرحلة الأخيرة
- طالبة الثأر
- الصدى الخالد

موكب الأسرى

وكر نفر من الجيش راجعاً إلى الكوفة ، موقراً بحمله الرهيب من رؤوس الشهداء .

وكان الليل قد أوغل ، وقصر «ابن زياد» قد أغلق .

قالوا : فذهب حامل رأس الإمام الشهيد إلى منزله ، فوضع الرأس في مكان منه ودخل فراشه فقال لامرأته : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس «الحسين» معك في الدار !

فصاحت مرتاعة :

— ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله ﷺ وآله ؟ والله لا يجمعني وإياك بيت أبداً !

وانطلقت من الدار خارجة تعدو في ذعر...

* * *

وسيق موكب الأسرى والسبايا ، فكان أبشع موكب شهده التاريخ منذ كان...

كان فيهم صبيان للحسن بن علي ، استصغرا فتركا بلا ذبح وأخ لهما ثالث ، ارتث جريحاً فحمل مع الركب.

وغلام مريض من أبناء الحسين، هو «علي الأصغر، زين العابدين» أنقذته عمته «زينب» بشق النفس . فكان كل من بقي من سلالة شهيدها الغالي.

ومع «زينب العقيلة» سيقت أختها «فاطمة» و«سكينة بنت الحسين» وبقية نساء بني هاشم : سبايا أسيرات .

وجاز الركب بساحة المعركة حيث الأشلاء مبعثرة في الدماء، فصاحت «زينب» :

«يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ! هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا» .

فضجت النسوة من ورائها بالنواح ، وبكى كل عدو وصديق .

* * *

ودخل الموكب «الكوفة» .

ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوي ، في طريقهن إلى «عبيد الله بن زياد» .

وسمعت آهة من هنا ، وشهقة من هناك ، وكلمة من هنالك : رثاء وعزاء...

ورؤيت نساء «الكوفة» قياماً يندبن متهتكات الجيوب وبكى الباكون ، على الكريمات المستذلات .

فلم تطق «زينب» على ذلك صبراً...

لم تطق أن ترى أهل «الكوفة» يبكون وهم الذين خذلوا أباها وأخاها «الحسن» ، وأسلموا ابن عمها «مسلم بن عقيل» وغرروا بأخيها «الحسين» فلما جاءهم باعوا سيوفهم ليزيد.

لم تطق أن ترى أهل الكوفة يبكون «الحسين» وآله وهم ضحاياهم ، ويرثون للأسيرات من بنات الرسول ، وما انتهك حرمتهن سواهم!

وذكرت ذم أبيها «علي» – كرم الله وجهه – أهل «الكوفة» وشكواه منهم ، ثم سرحت بصرها بعيداً ، حيث جثث الشهداء من أهلها ممزقة منبوذة بالعراء ، حتى استقرت عيناها أخيراً على أولئك الباكين ، فأشارت إليهم أن اسكتوا.

فطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً ، على حين مضت هي تقول:

«أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون؟ فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة! إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم ألا ساء ما تزرون.

«أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل ابداً. وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء!..

«أتعجبون لو أمطرت دماً؟! ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، ان سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون...

«أتدرون أي كبد فريتم ، وأي دم سفكتم ، وأي كريمة أبرزتم؟ لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا».

قال من سمعها : «... فلم أر والله خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضج الناس بالبكاء ، وذهلوا ، وسقط ما في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء».

ثم لوت رأسها عنهم ، ومضت قدماً ، إلى حيث أريد لها أن تمضي ، هي والسبايا من آل البيت الكريم.

مضت حتى بلغت دار الإمارة ، فأحست شجا في حلقها!

إنها تعرف كل قطعة في هذي الدار ، فلقد كانت دارها ، أيام كان أبوها «علي» أمير المؤمنين. ملء الدنيا والحياة...

وترنحت الدموع في مقلتيها ، لكنها أبت عليها أن تذل، ونادت شجاعتها وهي تجتاز الساحة الكبرى حيث رأت — منذ أكثر من عشرين عاماً — ولدها عوناً يحبو لاهياً ، ورأت شقيقيها الحسن والحسين ملء القلوب والأبصار.

ووضعت يمناها على ما بقي من قلبها خشية أن يتصدع ، حين أشرفت على القاعة الكبرى ورأت «عبيد الله بن زياد» جالساً حيث تعود أبوها أن يجلس : يستقبل الوفود ، ويجتمع بالرسل والأمراء والولاة...

إنها تدخلها اليوم أسيرة يتيمة ثكلى ، قد فقدت أباها ، وولدها وشقيقيها ، وبقية آلها.

ودَّت إذ ذاك لو نفست عن أشجانها بدمعة ، أو أنة ، لكنها كرهت أن تلقى الطاغية ذليلة باكية .

لم تكن قط كما هي اليوم ، بحاجة إلى أن تلوذ بكل كبريائها وقوتها ، وعزة بيتها ، وشرف آلها ، وعراقة محتدها ، لكي تقف الموقف الجدير بحفيدة الرسول ، وعقيلة بني هاشم .

وهي أشد حاجة إلى ذاك ، لتؤدي دورها الذي ينتظرها ، بعد أن اجتاح الإعصار كل من كان لها من الرجال ...

وتقدمت «زينب» في مهابة وجلال ، وقد لبست أرذل ثيابها وحفت بها إماؤها ، فأخذت مجلسها دون أن تلقي بالاً إلى الأمير الطاغية .

وأخذتها عيناه وهي تجلس بادية الترفع ، قبل أن يؤذن لها في الجلوس ، فسألها : (من تكون) ؟ .

فلم تجب ...

وأعاد السؤال مرتين وثلاثاً ، وهي لا تجيب ، احتقاراً له واستصغاراً لشأنه !

وأجابت إحدى امائها :

– هذه زينب ابنة فاطمة .

قال لها «ابن زياد» وقد غاظه ما كان منها : «الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم» .

فردت عليه ونظراتها تقطر احتقاراً : «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه ﷺ وآله ،

وطهرنا من الرجس تطهيراً ؛ إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » .

فسألها :

—كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

أجابت وما يزايلها ترفعها :

—كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده .

وهنا صغر الطاغية واضمحل ، لكنه قال في اشتفاء :

— قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة والمردة من أهل بيتك...

فردت عبرتها وهي تقول :

— لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت .

قال ساخراً في غيظ :

— هذه سجاعة ، لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً .

فقالت في رزانة صارمة :

— ما للمرأة والسجاعة؟ إن لي عن السجاعة لشغلاً .

فرد عنها بصره ، وعاد يتأمل وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على « علي الأصغر

ابن الحسين» فأنكر بقاءه حياً وسأله :

– ما اسمك؟

أجاب الغلام : أنا علي بن الحسين.

فعجب «ابن زياد» وتساءل :

– ولكن ، او لم يقتل الله علي بن الحسين؟

فسكت الفتى...

وعاد «ابن زياد» يستحثه :

– ما لك لا تتكلم؟

قال :

– قد كان لي أخ يقال له أيضاً «علي» فقتله الناس.

قال «ابن زياد» :

– إن الله قد قتله !..

فأمسك الفتى لا يرد ، ثم قال حين استحثه «ابن زياد» :

– الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله..

فصاح الطاغية :

– أنت والله منهم ، ويحك !

ثم التفت إلى رجاله فقال :

– أنظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً!

ثم أمر به أن يقتل، فاعتنقته عمته «زينب» وهي تقول:

– يا ابن زياد، حسبك منا! أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟

ثم آلت عليه: ليدعن الغلام، أو فليقتلها معه...

فتأملها «ابن زياد» برهة، ثم انثنى يقول لأصحابه:

– عجباً للرحم! والله إني لأظنها ودت لو أني قتلتها معه: دعوا الغلام ينطلق مع نسائه.

وأمر «ابن زياد» برأس «الحسين» فطيف به في الكوفة محمولاً على خشبة.

ثم جعل الغل في يدي «علي زين العابدين» ورقبته...

* * *

وسيق الموكب مرة أخرى إلى دمشق...

رأس الحسين، ورؤوس السبعين من آله وصحبه، والأسرى من الصبية في الأغلال، والسبايا من نساء البيت الكريم محمولات على الأقتاب في حراسة بعض رجال «ابن زياد» الأشداء.

لم يتكلم «علي بن الحسين» طوال الطريق.

ولم تتكلم عمته «زينب».

كانت المحنة الفادحة قد ألجمت لسانيهما فانطوى «ابن الحسين» على نفسه صامتاً

يحدق في الأغلال.

وراحت «زينب» ترمق رؤوس الشهداء من آلها واجمة صامتة!

حتى إذا بلغوا «دمشق» سير بهم تواً إلى حضرة «يزيد بن معاوية» وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء!

وكان «يزيد» قد دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله.

ووضعت رأس «الحسين» بين يديه، فالتفت إلى أصحابه يقول:

«هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما
يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما!

ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى رأس الشهيد:

«أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وفاطمة أمي خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر. فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له. وأما قوله: أمي خير من أمه، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي. وأما قوله: جدي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً أو نداً. ولكنه – أي الحسين – أُتي من قبل فقهه، ولم يقرأ: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء!».

ثم أمر بإدخال الأسرى والسبايا.

وجعل أهل المجلس ينظرون إلى بنات البيت الهاشمي ، وقد كن — حتى أمس قريب — عزيزات منيعات مصونات!

وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن ، فغضوا أبصارهن على استحياء إلا رجلاً شامياً ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي — وكانت شابه وضيئة — ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل إلى «يزيد» فقال :

— يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه !

فأخذت فاطمة بثياب أختها «زينب» مذعورة ترتجف.

قالت «زينب» وهي تحتضن أختها :

— كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك ولا له !

فغضب يزيد وقال :

— كذبت والله ، إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت !

قالت :

— كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

فاستثاره قولها غضباً وتساءل منكراً :

— إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فأجابت في إصرار:

- بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت يا يزيد، أنت وأبوك وجدك!

قال محنقاً:

- كذبت يا عدوة الله!

فهزت رأسها استخفافاً وهي تقول:

- أنت أمير مسلط، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك...

فلم يجب...

وساد القاعة وجوم ثقيل، ثم عاد الشامي يملأ عينيه من «فاطمة» ويقول:

- يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية!

فصاح به أميره:

- أغرب، وهبك الله حتفاً قاضياً!

* * *

ثم كان المشهد الرهيب:

كشف «يزيد» عن رؤوس الشهداء، وانثنى يعبث بقضيب في يده، بثنايا الإمام «الحسين» وهو ينشد:

ليت أشياخي «ببدر» شهدوا جزع «الخزرج» من وقع الأسل
لأهلوا، واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا «يزيد» لا تشل!

فبكت نساء هاشم إلا «زينب» فإنها انتفضت تصيح في الطاغية:

«صدق الله يا يزيد: «ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوء، أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون»:

«أظننت يا يزيد انه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأساري، أن بنا هواناً على الله، وأن بك عليه كرامة؟ وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك؟ ان الله ان أمهلك فهو قوله: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين».

«أمن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك بناتك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ وآله كالأسارى قد هتكت ستورهن، وأصلحت أصواتهن، مكتئبات تجري بهن الأباعر، وتحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد ليس معهن قريب من رجالهن؟...

«أتقول: ليت أشياخي ببدر شهدوا، غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا «أبي عبد الله» بمخصرتك؟ ولم لا وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة، دماء نجوم الأرض من «آل عبد المطلب»؟

«ولتردن على الله وشيكاً موردهم، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى.

«أيزيد والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك! وسترد على رسول الله ﷺ وآله برغمك، ولتجدن عترته ولحمته من حوله في حظيرة القدس،

يوم يجمع الله شملهم من الشعث : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون».

«وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحكم ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك أينا شر مكاناً وأضعف جنداً.

«فلئن اتخذتنا في هذه الحياة مغنماً ، لتجدننا عليك مغرماً. حين لا تجد إلا ما قدمت يداك. تستصرخ بابن مرجانة – عبيد الله بن زياد – ويستصرخ بك ، وتتعاوى واتباعك عند الميزان وقد وجدت أفضل زاد تزودت به: قتل ذرية محمد ﷺ وآله.

«فوالله ما اتّقيت غير الله ، وما شكوت إلا لله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً ! »

وسكتت ، فأطرق «يزيد» وأطرق كل من كان معه ، كأن على رؤوسهم الطير...

* * *

وقيل إن «هنداً بنت عبد الله بن عامر : زوجة يزيد» سمعت بما يدور في مجلس زوجها ، فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت : «يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ؟»

قال :

– نعم ، فأعولي عليه وحدي...

ورآه أحد الصحابة وهو ينكت بقضيبه في ثغر «الحسين» فقال منكراً:

«أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله ﷺ وآله يرشفه! أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة و«ابن زياد» شفيعك، ويجيء هذا – مشيراً إلى الحسين – يوم القيامة ومحمد ﷺ وآله شفيعه».

* * *

وضاق «يزيد» بمرأى «زينب» وهزه ما سمع منها، فأشاح عنها بوجهه وهو يشير إليها وإلى النساء معها أن يخرجن إلى داره.

وأمر «بعلي بن الحسين» فأدخل مغلولاً فقال:

– لو رآنا رسول الله ﷺ وآله مغلولين لفك عنا.

قال «يزيد» وما يزال صوت «زينب» يدوي في أذنيه:

– صدقت.

وأمر بفك الغل عنه، ثم قرّبه إليه وهو يقول كالمعتذر:

– إيه يا علي بن الحسين! أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت.

فكان جواب «علي» أن تلا قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور».

فهم «يزيد» بأن يتلو الآية :

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم...» لكنه ما لبث أن سكت ، فقد كان صراخ النسوة يسمع من بعيد ، فاجعاً مؤثراً ، عالي الرنين.

ولم تكن بنات هاشم وحدهن الباكيات ، بل واستهن نساء بني أمية بدموعهن.

فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على «الحسين».

وأقيمت المناحة ثلاثة أيام وصالاً ، ثم أمر «يزيد» فجهزن للسفر إلى «المدينة» في صحبة حارس أمين ، معه خيل وأعوان...

وقيل إن «يزيد» دعا «علياً» فقال له مودعاً :

«لعن الله ابن مرجانة – يعني ابن زياد – أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن قضى الله ما رأيت».

وسأله أن يكتب إليه كلما عنت له حاجة ، ثم انسل إلى مخدعه وصدى صوت «زينب» يطارده في قسوة وإلحاح !

* * *

وخرج الحارس بنساء «الحسين» وصبيته ، يسايرهم بالليل متلطفاً فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم ، فلم يزل ينازلهم في الطريق هكذا ، وهو يسألهم من حين إلى حين : «هل من حاجة؟»

قالت «زينب» مرة :

– لو عرجت بنا على «كربلاء»؟!

فأجاب محزوناً :

– أفعل !

ومضى بهم حتى أشرفوا على الساحة المشئومة .

* * *

كان قد مضى على المذبحة يومئذ أربعون يوماً ، وما تزال الأرض ملطخة ببقع من دماء الشهداء ، وبقية من أشلاء عفنة ، عف عنها وحش الفلاة .

وناحت النوائح ، وأقمن هناك ثلاثة أيام لم تهدأ لهن لوعة ولم ترقأ لهن دمعة ، ثم أخذ الركب المنهك طريقه إلى مدينة «الرسول» .

فلما كانوا بظاهر المدينة قالت «فاطمة بنت علي» لأختها «السيدة زينب» :

– يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل إلينا في صحبتنا ، فهل لك في أن نصله؟

أجابت «العقيلة» .

– والله ما معنا شيء نصله به إلا حلينا ...

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به إلى الرجل ، معتذرتين إليه عن ضآلة الهدية ، بضيق الحيلة واليد .

لكن الرجل رد إليهما الحلي قائلاً :

- لو كان الذي صنعت إنما هو للدنيا ، كان في حليكن ما يرضيني ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

أوبة الركب

كانت «المدينة» في تلك الفترة ، واجمة تترقب أنباء سبط الرسول الذي خرج إلى «الكوفة» ملبياً نداء شيعته هناك ، فما راعها إلا منادٍ ينادي :

«إن علي بن الحسين قد قدم إليكم مع عماته وأخواته» .

علي بن الحسين؟ والعمات والأخوات؟

فأين «الإمام الحسين» إذن؟ وأين الأعمام والإخوة وبنو الأعمام؟

أين نجوم الأرض من «بني الزهراء» وآل عبد المطلب؟

أين ... وأين !

وانتشر صدى النعي حتى بلغ سفح «أُحد» ثم ارتد إلى البقيع ، فقباء ، خافتاً ممزقاً ، وما لبث أن تلاشى في صراخ الباكين وعويل النادبات .

لم تبق مخدرة في «المدينة» إلا برزت من خدرها نائحة معولة ، واندفعت «زينب

بنت عقيل بن أبي طالب » – أخت مسلم – ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وتصرخ :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم، وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى، ومنهم ضرجوا بدم؟
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وسمع من بعيد صوت ينوح :

أيها القائلون جهلاً «حسيناً» أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي، ومالك، وقبيل
قد لعنتم على لسان أبي داو د وموسى، وحامل الإنجيل !

وأهل الركب الحزين على الجموع التي خرجت لاستقباله ، فما رأت «مدينة الرسول» أفجع مشهداً ، ولا رأت مثل ذاك اليوم أكثر باكياً وباكية !

* * *

وذكرت « المدينة » ليلة خرجوا منها إلى « مكة » – في إحدى أمسيات شهر رجب الفرد – جمعاً كريماً يتقدمه « زين شباب الجنة » في هالة من النجوم الزهر... خرجوا يطاولون «يزيد بن معاوية» ليزيلوه عن عرش لم يروه له أهلاً...

لقد آب الركب من سفره بعد تلك الغيبة التي لم تتجاوز أشهراً معدودات ، فيا لله ماذا فعلت بهم الليالي والأيام؟

حثتهم إلى مناياهم سراعاً ، حتى إذا بلغوا وادي الردى – ذاك الذي خالوه وادي

الأمل – حصدهم منجل الموت حصداً ، فلم يترك سوى هذه البقية التعسة من الصبية اليتامى والنسوة الثواكل !

أمّا الرجال والشباب فلم يؤب منهم مسافر...

* * *

وأقامت «مدينة الرسول» أياماً بلياليها تشهد المأتم الرهيب ، وتصغي إلى النواح الفاجع ، وتتلقى في ثراها الطاهر دموع البواكي...

وإذ ذاك نرى «عبد الله بن جعفر» – زوج زينب – يجلس ليتقبل العزاء في ولديه : عون الأكبر ، ومحمد . وفي ابن عمه «الحسين» وبقية الشهداء من آل جعفر وبني عبد المطلب .

ونسمع مولى من مواليه يقول في حمق :

«هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين» .

فيقذفه «عبد الله» بنعله ساخطاً مغضباً وهو يقول :

«يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه . والله انه لما يسخي بنفسي عن ولدي ويهون عليَّ المصاب فيهما ، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي ، مواسيين له صابرين معه» .

ثم ينثني إلى جلسائه فيقول : «أعزز علي بمصرع الحسين ، ألا تكن يدي آست حسيناً ، فقد آساه ولداي» .

ثم ينفض المأتم . وتبقى الأرامل والثواكل ، يسعين كل يوم إلى القبور فيندبن

الأعزاء الذين غودروا بكربلاء، وترجِّع «المدينة» أصداء أصواتهن فيبكي لهن الأعداء والأصدقاء.

حدثوا أن «أم البنين بنت حزام: زوج الإمام علي» كانت تخرج إلى البقيع فتبكي بنيها الأربعة «عبد الله، وجعفراً، وعثمان، والعباس» – وقد قتلوا جميعاً في كربلاء. وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها، فيجتمع الناس إليها يسمعون منها، فكان مروان بن الحكم – عدو الطالبيين – يجيء فيمن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي!

وقيل إن «الرباب بنت امرئ القيس: زوج الحسين وأم ابنته سكينة» عادت بعد مصرعه إلى المدينة «فامتنعت على الخطاب من أشراف قريش، وبقيت بعده سنة لم يظلها سقف بيت حتى بليت وماتت!»

* * *

ونفتقد «السيدة زينب» في المأتم الذي أقامه «عبد الله بن جعفر» لولديه، فيخيل إلينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد.

غير أنّا لا نلبث أن نراها وقد أمسكت دموعها، وهبت تطلب أمراً...

ان لها اليوم لشأناً آخر، غير البكاء!

فهذا الدم المسفوح، لا ينبغي أن يضيع هدراً...

وأولئك الشهداء الكرام، لا يجوز والله أن يذهبوا باطلاً!

* * *

الرحلة الأخيرة

أرادت «السيدة زينب» أن تقضي ما أبقت لها الأيام من عمر، في جوار جدها الرسول، لكن «بني أمية» كرهوا ذلك المقام:

فلقد عادت هي ومن معها يقصون على المؤمنين ما لقي سبط الرسول من جيش «يزيد»، ويصفون لهم المجزرة الشنيعة التي ذبح فيها الإمام الحسين وشيعته.

وكان وجود «السيدة زينب» في المدينة كافياً لأن يلهب الحزن على الشهداء، ويؤلب الناس على الطغاة، حتى كاد الأمر يفسد على بني أمية، فكتب واليهم «بالمدينة» إلى «يزيد»: «إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر. وإنها فصيحة عاقلة لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين».

فأمره «يزيد» أن يفرق البقية الباقية من «آل البيت» في الأقطار والأمصار.

وطلب الوالي إلى «السيدة زينب» أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء.

قالت غاضبة مستثارة:

«قد علم والله ما صار إلينا : قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لاخرجنا وان أريقت دماؤنا».

لكن نساء «هاشم» أشفقن عليها من غضب الطاغية ، فأحطن بها يتلطفن معها في الكلام ويواسينها ويغرينها بالخروج. وقالت لها «زينب بنت عقيل بن أبي طالب» :

«يا ابنة عمي ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء وسيجزي الله الظالمين... إرحلي إلى بلد آمن».

فخرجت «زينب» من مدينة جدها الرسول ، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك أبداً !

* * *

رحلت تريد «مصر»...

وما أكثر ما رحلت «زينب» !

أفتقضي العمر هكذا متنقلة من بلد إلى بلد لا يطمئن بها على الأرض مكان؟

وشعرت رفيقات السفر من الهاشميات ، ان عقيلتهن تبدو مجهدة كما لم تبد قط من قبل ، فهي تقطع الطريق تائهة النظرات جامدة العينين ، كأن شيئاً فيها قد انحطم أو مات.

ويردن ليؤنسن وحشتها فلا تزداد إلا وجوماً وشروداً.

ويعمدن آخر الأمر إلى شيء زعمن أنه قد يخفف عنها ، فمضين يتذاكرن ما كان في «كربلاء» كي ينكأن جرحها فتبكي...

لكن الدمع كان قد تحجر في مقلتيها...

وأوغل الجرح في قلبها : عميقاً غائراً مميتاً !

* * *

وكانت الليالي الأخيرة من السفر أشد المراحل كآبة وانقباضاً...

جاوز الركب الساري أرض الحجاز، مرتع الصبا وموطن الأجداد والآباء...

وأشرف على أرض النيل، حيث لا أهل، ولا وطن... الأفق مظلل بالغيوم وليس في السماء قمر...

وعلى الصحراء الشرقية جثم الهواء راكداً فاتراً ثقيلاً، كأنما جمد لمرأى الركب الحزين الساري.

* * *

وملأت الوحشة، ذلك الفضاء العريض...

ثم تغير المشهد :

بزغ هلال شعبان (عام ٦١ هـ) في اللحظة التي وطئت فيها «السيدة» أرض النيل، فإذا جموع من الناس قد احتشدت لاستقبالها.

وساروا هكذا حتى بلغوا قرية قرب «بلبيس» فقابلتهم هناك جموع أخرى آتية من عاصمة الوادي الأمين.

انه «مسلمة بن مخلد الأنصاري : أمير مصر» في وفد من أعيان البلاد وعلمائها،

قد خرجوا للقاء ابنة «الزهراء» وأخت «الإمام الشهيد».

فلما أطلت عليهم بطلعتها المشرقة بنور الاستشهاد، أجهشوا بالبكاء.

وحفوا بركبها، حتى إذا بلغت العاصمة مضى بها «مسلمة» إلى داره فأقامت بها قرابة عام، لم تر خلالها إلا عابدة متبتلة.

* * *

ثم كانت نهاية المطاف...

ماتت «السيدة زينب» عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الأقوال.

وأغمضت العينان اللتان شهدتا مذبحة «كربلاء».

وآن للجسد المتعب المضنى أن يستريح.

فمهدت لها الأرض الطيبة مرقداً ليناً في مخدعها من دار «مسلمة» حيث نزلت «السيدة» منذ جاءت، وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة [١].

وبقي قبرها مزاراً مباركاً يفد إليه المسلمون – حتى يومنا هذا – من كل فج عميق...

وبقيت قصة آلامها المثيرة، حديث الأجيال والأعوام...

* * *

(١) من شاء فليرجع إلى (أخبار الزينبات – صفحات ٧ و ١٩ و ٥٩) وما استدرك على «السخاوي» في (تحفة الأخبار – هامش ص ١١١) وانظر أيضاً (طبقات الشعراني ص ٢٩) والخطط لعلي مبارك باشا.

طالبة الثأر

لم تعش «السيدة زينب» بعد أخيها الشهيد سوى عام ونصف عام.

لكنها استطاعت في هذه الفترة القصيرة أن تغير مجرى التاريخ!

فلقد ظن «بنو أمية» ان مقتل «الحسين» وآله جميعاً هو الفصل الأخير من قصة الشيعة.

ولم يكونوا في ذلك الظن سذجاً أو غافلين، فما كان يرجى أن تقوم لآل «علي» قائمة بعد أن فني الرجال ولم يبق سوى الصبية اليتامى والنسوة الثواكل!

ولقد قتل «علي» من قبل، ومضت الحياة سيرتها لا تتوقف ولا تنحرف...

واستوثق الأمر «لمعاوية» برغم ما شاع في الناس من أنه أغرى زوجة «الحسن بن علي» أن تدس السم لعميد البيت العلوي.

وسارت الحياة، غير ملتفتة كثيراً للذي مضى وفات!

ثم قتل «الحسين» على مرأى من شيعته بالكوفة ومسمع، وكانوا بحيث يفعلونها مرة أخرى فيدعون ابنه «علياً» ثم يخذلونه ويسلمونه كما فعلوا بأبيه وعمه من قبل، لولا أن «السيدة زينب» ظهرت على مسرح المأساة – قبيل إسدال الستار – لتقذف

بلعنتها أهل «الكوفة» والطغاة من بني أمية!

ومن ثم لم يسدل الستار أبداً، وما أحسبه يسدل حتى تتبدل الأرض ومن عليها!

* * *

لم تمض «زينب» إلا بعد أن أفسدت على «ابن زياد ويزيد، وبني أمية» لذة النصر، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين!

فكانت فرحة لم تطل...

وكان نصراً موقتاً، لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة قضت آخر الأمر على دولة بني أمية.

فلم تكد «زينب» تخرج من عند «يزيد» حتى أحس أن سروره بمقتل «الحسين» قد شابه كدر خفي، ظل يزداد حتى استحال إلى ندم، كدَّر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته.

ولحق منه «بابن زياد» شر كثير...

ويروي «الطبري» و«ابن الأثير» أنه «لما قتل عبيد الله بن زياد، الحسين بن علي — عليه السلام — وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى «يزيد» فسر بقتلهم أولا، وحسنت بذلك منزلة «عبيد الله» عنده، ثم لم يلبث قليلاً حتى ندم على قتل «الحسين». فكان يقول: «وما كان عليَّ لو احتملت الأذى وحكمته فيما يريد؟.. لعن الله «ابن مرجانة» فإنه أخرجه واضطره... ثم قتله فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلي حسيناً!.. ما لي ولابن مرجانة... لعنه الله!»».

وغضب عليه!..

وسمع يحيى بن الحكم — الأموي — يقول:

«سمية» أمسى نسلها عدد الحصى   وليس لآل المصطفى اليوم من نسل!

* * *

وشغل الناس بعد وفاة «السيدة زينب» بالحديث عن استجابة السماء لدعاء الأنثى الطاهرة، وراحوا يملأون لياليهم بسمر عجيب عن غضب السماء للدم الطاهر المسفوح، والبيت الكريم المستباح...

وجاء المؤرخون فلم يستطيعوا أن يمروا بتلك الأقاصيص والأسمار دون أن يقفوا عندها وينقلوها إلينا:

فما تركوا أحداً ممن شارك في مأساة «كربلاء» إلا جاءونا بقصة عما سلط عليه من غضب السماء وانتقام الجبار.

وقد نتردد فيما جاءت به كتب غلاة الشيعة عن مصاير هؤلاء الآثمين، لكننا نصغي إلى مؤرخين عرفوا بالأمانة والاعتدال -كالطبري وابن الأثير- فنسمع العجب العجاب:

ذاك رجل من بني دارم حال بين «الحسين» وبين الماء، فدعا عليه الشهيد بالظمأ. قال من رآه بعد ذلك: «فوالله ان مكث إلا يسيراً حتى صب عليه الظمأ فجعل لا يروى... ولقد رأيته وبين يديه قلال الماء وعساس اللبن وانه ليقول: ويلكم! اسقوني، قتلني الظمأ! فيعطى القلة أو العس فيشربه، ثم يقول بعد هنيهة: ويلكم! اسقوني قتلني الظمأ، حتى انقد بطنه!...»

وآخر منهم، دعا عليه «الحسين»: «اللهم اقتله عطشاً». فحدثنا من عاده في مرضه قال: «فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد رأيته يشرب ثم يقيء، ثم يشرب... فما يروى... حتى مات».

وثالث من كندة، أخذ (برنس) الإمام الشهيد، وأقبل على داره يغسله من الدم، فقالت له امرأته: «أسلب ابن بنت رسول الله تدخل بيتي؟.. أخرجه

عني ! ». قيل : فذكر أصحابه انه لم يزل فقيراً حتى مات !

ورابع ، سلب سراويل «الحسين» فتركه مجرداً ، قالوا : «إن يديه كانتا في الشتاء تنضحان الدم ، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود ! »

وقد يكون أكثر هذا من صنع السمار والمنقبين ، لكن للذي لا شك فيه عند المؤرخين أن دم «الحسين» الذي طلبته أخته «زينب» لم يذهب هدراً !

فما هي إلا أعوام ثلاثة فحسب ، حتى كانت جذوة الغضب الكامنة قد نضجت في بطء ، واحتدمت مستعرة ترمي بشرر كالقصر...

وهبت الكوفة بأسرها تصيح : «يا لثارات الحسين» .

وشهد عام ٦٦ هـ ، مذبحة أخرى بالعراق ، ثأراً لمذبحة كربلاء !

قتل من الذين شاركوا في قتل «الحسين» مائتان وثمانية وأربعون في موقف واحد !

وطورد الهاربون في إصرار وإلحاح ، فإذا جيء بهم سئلوا : «أين الحسين بن علي؟ قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه؟ ! »

ثم اختيرت لكل منهم قتلة تناسب دوره في مصرع الشهيد :

فهذا يحرق بالنار.

وذاك تقطع أطرافه ويترك حتى يموت .

وثالث يذبح ذبح النعاج .

ورابع كان يقول : «لقد رميت فتى من آل الحسين بسهم ، فوضع كفه على جبهته يتقي النبل فاخترق النبل كفه» .

قالوا : فأثبتت كفه في جبهته وضربت بالنبال .

وكان «عبيد الله بن زياد» فيمن قتل يومذاك.

وكذلك «عمر بن سعد بن أبي وقاص» وابنه حفص.

وهرب «الأشعث بن قيس» فهدمت داره وبنيت بأنقاضها دار «حجر بن عدي الكندي» وكان «زياد بن سمية» قد هدمها!

حتى أفنوهم جميعاً.

وبعثت الرؤوس — في هذه المرة — إلى «المدينة»، لا إلى «دمشق»[1].

لكن القصة لم تنته بأخذ الثأر؟..

كانت هناك بقية لم تزل.

بقية من فصول ذات عدد...

كان منها ثورة «عبد الله بن الزبير» بالحجاز، وخروج أخيه «مصعب» بالعراق...

ثم سقوط الدولة الأموية فيما بعد، وقيام الدولة العباسية على دعوة ظنّت الشيعة أنها للعلويين، ثم ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب وما صاحب هذا كله، وما أعقبه، من معارك وأحداث، كتبت تاريخنا كله منذ مقتل «الحسين».

بل حدث هنا ما هو أهم من هذا: تأصل مذهب الشيعة، وكان له أثر بعيد في الحياة السياسية والمذهبية للشرق والإسلام.

و«زينب» هي باعثة ذلك ومثيرته!

لا أقول هذا من عندي تزيداً، وإنما هو قول التاريخ!

* * *

(١) ذكر الأستاذ «عمر أبو النصر» في كتابه (آل محمد في كربلاء — ص ١٠٤) ان الرؤوس بعثت إلى «علي بن الحسين». والذي في الخبر، انها بعثت إلى «محمد بن الحنفية» (تاريخ الطبري ١٢٧/٧) — والمسألة غاية في الدقة والخطر.

الصدى الخالد

بدت «زينب» لأهل «الكوفة» غداة مصرع أخيها «الإمام» – رضي الله عنه – صورة مثيرة لما اقترفوا في حق الشهداء من آل البيت.

وتكلمت، فهاجت فيهم شعوراً لاذعاً ممضاً بالحسرة والخزي والندم.

ثم غادرتهم...

وبقي صدى صوتها يدوي في آذانهم ويملأ الفضاء من حولهم، مذكراً إياهم بخطيئتهم الشنعاء!

وظل هذا الصدى باقياً لم يتبدد مع الأحداث التي أعقبت المذبحة وثأرت لقتلاها.

* * *

لقد كان نصيب أهل الكوفة – شيعة الحسين وحزبه وأنصاره – من إثم كربلاء، أبشع وأشنع من نصيب الآلاف الأربعة، الذين تكاثروا على الشهداء السبعين!

وهل يقاس ما فعله حزب يزيد بالحسين، بما فعله أنصار الحسين وشيعته؟

هؤلاء دعوا إمامهم، وأخرجوه من حماه، ثم أسلموه للأسنة والحراب وهم يتفرجون!

وأولئك خرجوا في جيش الدولة، يقاتلون بأمر أمير المؤمنين.

ولقد قتل أعداء الحسين، وقتلته.

وبقي الأصدقاء الغادرون.

وكانوا بحيث يستأنفون العيش بعد فعلتهم سادرين لاهين، غير شاعرين بفداحة خطيئتهم وبشاعة إثمهم.

وهل ندموا قبلها على ما اقترفوا في حق «الإمام علي» وولده «الحسن» من بعده؟

كلا!..

قضى «علي» وقضى «الحسن» كما رأينا.

وكادت فعلتهم بالحسين تمضي دون أن يبقى منها سوى بضعة أسطر في كتب التاريخ، وبضع قصص في أحاديث السمار...

لكن «السيدة زينب» وقفت على جثث الشهداء، تصيح بأهل الكوفة الذين بكوا لما رأوا موكب الأسرى من بنات الرسول:

«أتبكون؟ فلا سكنت العبرة!»

واستجابت السماء، فلم تسكن للقوم عبرة!

وقد بدأوا يحسون وخز الندم منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها «بطلة كربلاء» موقفها الأليم المثير.

قال «الطبري وابن الأثير»: ... «ومكثوا بعدها شهرين أو ثلاثة، كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى مرتفع ...».

وقالا : «لما قتل الحسين بن علي ، ورجع ابن زياد من تعسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة — ليستقبل موكب رؤوس القتلى ، والسبايا من بنات الرسول — تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائها الحسين إلى النصرة ، وتركه يقتل إلى جانبهم لم ينصروه» .

ورددت حوائط الكوفة صدى صوت «زينب» :

«... أي والله !.. فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة... وهو سيد شباب أهل الجنة؟»

فأمنوا جميعاً !

وتكلموا ، فكأنما كانوا ينزعون عن لسان «زينب» !

قال قائلهم :

«دعونا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه بمالنا....

«فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وآله ، وقد قتل فينا ولده وحبيبه ، وذريته ونسله؟.. لا والله لا عذر دون أن تَقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تُقتلوا في طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا ، وما أنا بعد لقائه ، لعقوبته بآمن» .

وعقب آخر :

«... إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ، ولدينا ، ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه...

ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى

الله ، ووالله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيدوا !

«فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ...»

أي وربي !

لكأنما كانوا ينزعون عن لسان «زينب» .

* * *

وما زال أهل الكوفة منذ سنة ٦١ هـ — وهي السنة التي قتل فيها الحسين — يتلاومون ويتداعون ويجمعون آلة الحرب ، حتى تجمع جيش عرف في التاريخ بجيش «التوابين» الذين تنادوا : يا لثارات الحسين.

ولم يكتموا أمرهم هذه المرة ، ولا عمدوا إلى الخفاء ، بل قال المؤرخون : «خرج التوابون يشترون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويتنادون من كل جانب : إنا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله ، نبينا ﷺ وآله» .

وما دخلت سنة ٦٥ هـ ، حتى كانت صيحتهم «يا لثارات الحسين» تزلزل الأرض تحت بني أمية ، وحتى كانت الكوفة تشهدهم في سلاحهم ينطلقون ساعين نحو قبر «الحسين» وهم يتلون الآية : «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم» .

فلما بلغوا القبر، صاحوا صيحة واحدة ، فما رئي أكثر باكين من ذلك اليوم ، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون قائلين :

«اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد...

«اللهم إنا نشهدك إنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم .

«اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا ،

وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وغادروا القبر وقد ازدادوا ندماً وحماسة، فاندفعوا كالموج مستبسلين، يلقون الألوف المؤلفة من جند بني أمية، وأقصى أمانيهم أن يقتلوا في ثأر «الحسين» لعل ذلك يخفف عنهم وقر الإثم وقسوة النكال. ولقد كانوا يومئذ يعطون الأمان فيأبون صائحين:

«قد كنا آمنين في الدنيا، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة»...

حتى أبيدوا جميعاً، فذلك قول أعشى همدان يرثي كل تائب منهم:

تخلى عن الدنيا وقال: طرحتها
فلست إليها ما حييت بآيب
وما أنا فيما يكره فقده
ويسعى له الساعون فيها براغب

* * *

فساروا وهم ما بين ملتمس التقى
وآخر مما جر بالأمس تائب
فجاءهم جمع من الشام بعده
جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم
فلم ينج منهم ثم غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فاصبحوا
تعاورهم ريح الصبا والجنائب

أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه

وطعن بأطراف الأسنة صائب

فيا خير جيش بالعراق وأهله

سقيتم روايا كل أسحم ساكب

* * *

مضى التوابون، وأبقوا الندم والتوبة ميراثاً رهيباً لأبنائهم من بعدهم والأحفاد.

وكانت «زينب» هي التي جعلت من مصرع «الحسين» مأساة خالدة، لا نعرف ما هو أبعد منها أثراً في تطور العقيدة عند الشيعة.

وكانت هي التي صيرت من ليلة العاشر من المحرم، مأتماً سنوياً للأحزان والآلام، يحج فيه أحفاد «التوابين» إلى المشهد المقدس في «كربلاء»، حيث يعيدون تمثيل المأساة، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدي، تكفيراً عن خطيئة الأجداد!

وكانت هي التي سلطت عليهم – من أنفسهم – نكالاً أليماً لا ينتهي بالموت، وإنما هي نار «الندم» الجامحة، يصلاها منهم الجيل بعد الجيل.

وان السنين لتمضي والقرون، وهم مصرون على أن تبقى تلك الجذوة متقدة أبداً، لا تخبو ولا تخمد، كأنما يجدون في هذا العذاب كفارة وتوبة.

أجل، إن السنين لتمضي والقرون، وأهل العراق مقيمون على الحزن يستمرئون طعمه، ويستعذبون مذاقه، ويرهقون أنفسهم بالإصرار على إحياء ذكرى خطيئة الذين ذهبوا بإثم الإمام الشهيد.

وما أحسب ان التاريخ قد عرف حزناً كهذا، طال مداه حتى استغرق بضعة عشر قرناً دون أن يفتر، فمراثي شهداء كربلاء هي الأناشيد التي يترنم بها العراقيون في

عيد حزنهم يوم عاشوراء من كل عام، وشاعرهم المفضل هو الذي يهيج لواعج شجيهم ويغذي النار المتقدة في أعماقهم بوقود جديد:

أناعي قتلى «الطف» لا زلت ناعيًا
تهيج على طول الليالي البواكيا

أعد ذكرهم في «كربلاء» ان ذكرهم
طوى جزعاً، طي السجل، فؤاديا

ودع مقلتي تحمر بعد ابيضاضها
بعد رزايا تترك الدمع داميا

شاعرهم المختار، هو الذي يعيد على أسماعهم — في إثارة عنيفة — قصة تلك الفئة القليلة المؤمنة التي آثرت الموت على التخلي عما تراه حقاً:

فثوت بأفئدة صوادٍ لم تجد
ريا يبل سوى الردى أحشاءها

وأغنيتهم الأثيرة هي مناجاة الشهداء، والبكاء على يتاماهم الصغار:

كم لكم من صبيبة ما أبدلت
ثم من حاضنة إلا رمالا!

سل بحجر الحرب ماذا رضعت؟
فثدي الحرب قد كن نصالا

* * *

أجل هي «زينب» التي جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة، وصيرت

من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام.

وكذلك كانت «زينب ، عقيلة بني هاشم» في تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية :

بطلة استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد العظيم ، وأن تسلط معاول الهدم على دولة بني أمية ، وأن تغير مجرى التاريخ !..

* * *

فهرس

	صفحة
إهداء	٥
مقدمة	٩
مقدمة الطبعة الثانية	١٣
آباء وأجداد	١٩
ظلال على المهد	٢٨
الصبا الحزين	٣٤
عقيلة بني هاشم	٤٧
نذر العاصفة	٥٧
هجرة	٧٨
دليل الركب	٨٧
محاولة وإصرار	٩٣
نحو وادي الموت	١٠٢
بطلة كربلاء	١١٢
موكب الأسرى	١٣١
أوبة الركب	١٤٨
الرحلة الأخيرة	١٥٢
طالبة الثأر	١٥٧
الصدى الخالد	١٦٢

سيدات بيت النبوة

الناشر دَار الكتاب العربي ، تقدم الى قراء العربية في الوطن العربي والعالم الاسلامي ، هذه المجموعة من تراجم سيدات بيت النبوة ، بقلم الباحثة الاسلامية الحجة الدكتورة بنت الشاطئ :

١ — «أم النبي» ﷺ

٢ — «نساء النبي» رضي الله عنهن

٣ — «بنات النبي» رضي الله عنهن

٤ — «السيدة زينب : عقيلة بني هاشم» رضي الله عنها

٥ — «السيدة سكينة بنت الحسين» رضي الله عنها

هذا الكتاب

في غمار أدقّ حدثٍ حفل به تاريخ الإسلام، ووراء أثرٍ أُعطي للعقيدة والفكر والسياسة لدى المسلمين - عبر حقب التاريخ ولا يزال - طابعاً فذّاً ليس لشأوه من حدود،

برزت امرأة!..

هي «السيدة زينب» عقيلة بني هاشم، وبطلة كربلاء، وأخت سبطي الرسول: الحسن والحسين. عليهم رضوان الله أجمعين.

والدكتورة «بنت الشاطئ» تأخذنا في هذا الكتاب، وعبر حياة هذه السيدة العربية، - حيث لا تندر الوقائع الضخام، ولا الأساطير العجيبة - لتروي لنا قصة فاقت إثارتها وغرابتها كل قصة وكل حديث.

من نافل القول أن نعدد القيم البارزة لهذا الكتاب في هذا الركن، إذ أن ذلك معناه نقله برمته إلى هنا؛ لذا فالطريق القويم أن نقرأه من الأول..

وإلى ذلك ندعو قارئنا العزيز!

الناشر

